كريمة عساس

سرداب العار

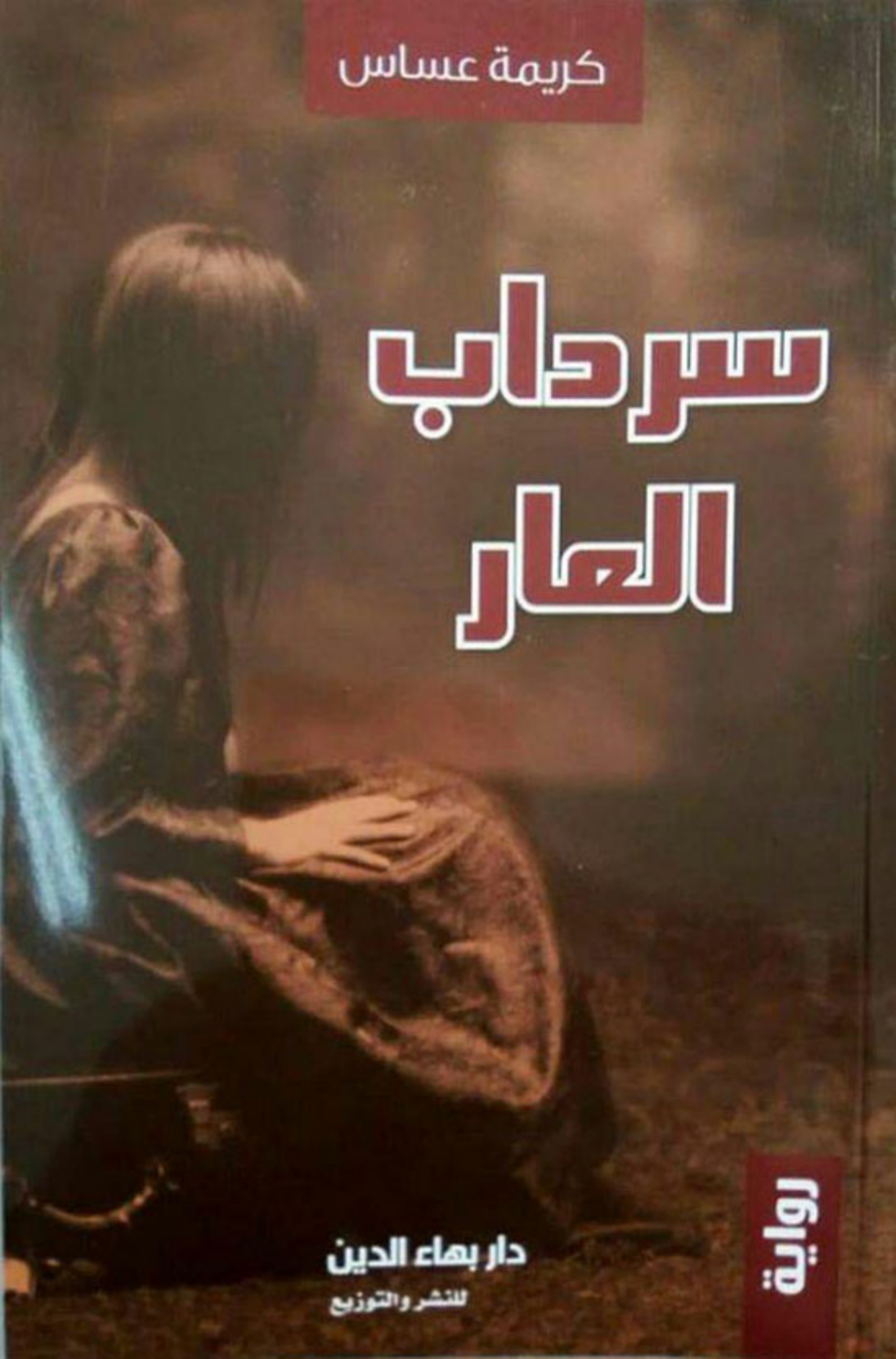

رواية

دار بهاء الدين
للنشر والتوزيع

سرداب العار

كريمة عساس

سرداب العار

روايــة

دار بهاء الدين
للنشر والتوزيع

دار بهاء الدين
للنشر والتوزيع

عنوان الكتاب: سِرداب العار **(روايــة)**
تأليف: كريمة عساس
الإيداع القانوني: 5999 - 2015
ردمك: 978-9931-322-80-1
الناشر: دار بهاء الدين للنشر والتوزيع
الطبعة الأولى: 2015
غلاف: قسم أنفوغرافيا دار بهاء الدين
الحجم: 21x14
عدد الصفحات: 240

حُقوق الطّبع مَحفُوظة

دار بهاء الدين للنشر والتوزيع
02 و. ج 2 مشروع 256 مسكن عمارة 20، المدينة الجديدة - قسنطينة - الجزائر
هاتف / فاكس: 00 213 31.97.23.39
محمول: 00 213 770 966 446
البريد الإلكتروني: bahaedition@yahoo.fr

إهـــداء

هتكَ براءتكِ.. فأضاعكِ إلى الأبد

امتصَّ حياتكِ من بين شفتيكِ..

علَّق مشنقة سنينكِ ليُعدمكِ عليها

فالعار حسب ذكورته.. أنثى..!

.. إلى كل الصغيرات أرفع قلمي

أحاول أن أقول فيكُنَّ كلمة حقّ..

فالمحاولة أمامكنَّ شرف..

أسماء الشخصيات غير حقيقية، وإذا ورد تشابه بينهما وبين
شخصيات حقيقية فذلك بمحض الصدفة

***

« أحبُّ أن أضيف إلى قائمة الشُّهداء اسمًا منسيًّا لا يبالي أحدٌ بموته اليوميّ، الحيّ.. الشَّهيدُ هو الحيّ»

غادة السمان.

عفوًا منك أيُّها القائل: « لا يفضُل قسنطينة إلَّا مكة والمدينة»

أنا أتمنى عليك أنْ تقبل اعتذاري..

***

سِردابُ العار

«.. ها أنتم تَصِلون النصر بالنصر..»

عبد العزيز بوتفليقة

السَّادسة مساءًا بتوقيت الثَّامن عشر نوفمبر 2009، يعلن الحكم السِيشيليّ «إِيدِيه مَايِيه» عن انطلاق مبارزة العمر.. وأبناءُ نوفمبر لا يلحقهم العارُ في نوفمبر..

وكما كلِّ الجزائريين عاشتِ «الصَّغيرة» ذلك النوفمبرَ أسعد أيَّام حياتها...

قليلًا ما يرنُّ الهاتف في جيبها فتردُّ:

– دنيا! أنت هنا متى عدت من زيارة أقاربكِ؟ انتظرتكِ طويلًا، عندي لكِ الكثير من الأخبار.

– أظنُّني حزرت.. لا.. لا تقولي لي.. معقول!

– يحبُّني دنيا تصوَّري..! أخبرني بذلك.

– متى أحبَّكِ؟ هل حدث شيءٌ لا أعرفه؟

– لن تحزري أبدًا.. أحبَّني مذ رآني أوَّل مرَّة.

– غير ممكن هذا يشبه الأفلام، اسمعي! لا تتحرَّكي مِنْ مكانك سآتي

إليك فورًا، حدثٌ كهذا أكبر من أن تقُصِّيه عبر سمَّاعة الهاتف، أريد أنْ أرى تعابير وجهكِ يا عزيزتي فأنت تحبِّين..

– أنا بانتظاركِ أسرعي صديقتي.

بعد سلام حارٍّ وطول سؤال استعجلتها دنيا بشراهة:

– هات أخبريني.. أغيب عنكِ ليومين فأعود لأجدك ولهانة، ماذا لو غبت شهرًا أكنت ستتزوَّجين!

تبتسم:

– أعذِرُ استغرابكِ فأنت لا تعرفينه.. إنَّه رائعٌ..

تتنهَّد.. ترمي بجسدها الصَّغير إلى الوراء..

– أنا أذوب عشقًا أتصدِّقين؟

– هاي..! ما بك؟ تماسكي؛ حاذري ممَّا يصيبكِ، لا تغوصي في عشقه أنت لا تعرفينَهُ بعد، لا ترمي بكل مشاعرك إلى القعر، فبنفس قدر عمق حبِّك سيكون عمق جرحك، بقدر غرقِكِ اليوم في حبّه ستُغرِقُكِ دموعكِ لاحقًا.

– دعيني دنيا من فلسفتكِ.. أنا أحبُّ.. أنا أحبُّ.. أنا حيَّةٌ.. أنا موجودةٌ..

- وتقولين عنِّي فيلسوفة..! هات أخبريني..

- ماذا أقول دنيا؟ فالذي بي أعظمُ ممَّا بالمجانين.. طوالَ عمرٍ من الزَّمن ما توقَّفتُ أبحثُ عن نفسي، عندما نزلت بأرض وطني لم أعرفه... حتَّى وجدتُني، تعثرتُ بي... سألتُني: أهنا انتماءي؟؟...!! كرَّرتُ سؤالي آلاف المرَّاتِ، لم أُرد أن يكون هذا الوطن سكنًا لي فبِهِ حضاراتٌ ضاربة، أعدت تكرار السّؤال.. السّؤال نفسه.. لم أجد إلَّا إجابةً واحدةً.. صُغت السُّؤال مرَّةً أخرى.. السُّؤال نفسه.. لماذا هذا الوطن؟؟.. لم يكن يضاهي سعادتي به إلَّا خوفي منهُ، فوطني رجلٌ وطالما سمعت عن الرُّجولة دون أن أعرفها حقًّا، وهذا أمر مخيف في حدِّ ذاته..

- والله ما علمت بأنَّ الأمر على هذا النحو، إنَّ ما بك فعلًا هو أعظم ممَّا بالمجانين.. من هذا؟ من يكون؟ كيف حصل كلُّ هذا؟ ماذا تعنين؟

- وطني رجلٌ طاعنٌ في الكبرياء.. متفهمٌ.. عاقلٌ.. ذكيٌّ.. مجاهدٌ.. جبَّارٌ في عنفوانه.. يُحبني، قال بأنَّه أحَبَّنِي منذ زمن بعيد، لم ينظر إليَّ شخص في حياتي مثلما نظر إليَّ، إنَّه رجلٌ فارٌ من زمن الأبجديّة.. حيِّيٌ.. عندما قال أحبُّكِ احمرَّ وجهه وارتعدَ.. قالها هامسًا.. كلُّ شيءٍ فيه كان ينادني، يداه تتَّجهان نحوي من غير إرادة منه، ولكنَّه لم يتقدَّم خطوة واحدةً بل عاد إلى الخلف، بدا خائفا من شيء ما..

أدركت لاحقًا بأنَّه خائفٌ من نفسه.

- لا يليقُ بي اليوم إلَّا أن أعزِّيكِ فهذا العشـــق الذي تتحدَّثين عنه إن لم يكـــن خلاصكِ فهو حتمًا موتكِ صديقتي، أنت تحبين اليوم ليس للمرة الأخيرة بل للمرة الأولى والكبيرة، فأنا لم أركِ حيَّة هكذا من قبل.

- نعم دنيـــا! وأحيى رَجُلي غيرتي بعد أنْ لم تكـــن... ودبَّت فيَّ الحياة مـــن جديد، في زمنٍ تخلَّت فيه أوطاننا عـــن رجولتها قبل أن تكفرَ بأســـطوريَّتها، أنا أحبُّ وطنًا أســـطوريًّا، عنقاءَ فارًا من الأزل... أحبُّه بهدوءٍ كـــما لم أهدأ أبدًا من قبل... ليس حُبًّـــا ضعيفًا بل حيًا لا يعترف بالانشطار الجســـديِّ، ليس حبًّا جنونيًّا بل حبًّا مجنونًا في تملُّكِهِ.. سيّدٌ.. مستقيمٌ.. أبيض.. هلاميّ.. أنا أحبُّ ليس أخيرًا يا صديقتي..

- متى أخبرك بأنَّه يحبُّكِ؟

- أمس.. عندمـــا أوصلني إلى البيت، فالطريق كانت مغلقة بســـبب المباراة..

- أوصلك إلى البيت؟ يبدو أنَّ الأمور بينكما تطوَّرت كثيرًا..

ملقيةً بجســـدها الشـــهيِّ على الفراش، تبتسم بنشـــوة وهي تلعب بخصلةٍ من الحرير البنيِّ:

– ما أسعد هذا النوفمبر..!

– ماذا ستفعلين؟ ألديك أيَّة خطط؟ هل تحدَّثتما؟ أنا لا أقصد حين قال أحبُّكِ.

نهضت واعتدلت في جلستها:

– كلَّا لم نتحدَّث بعد، ولا أعرف ما أفعل، قولي لي أنت! كيف نجاتي منه؟ كيف كينونتي..أنا..؟ كيف عودتي إليّ..؟ سياسة الكرِّ والفرِّ، سياسة المعاملة بالمثل.. مبادئ سياستي الخارجيَّة كلها ذهبت مع الريح، لم أُجِد التَّعامل مع إنسان للمرَّة الأولى في حياتي.

– ألا يقلقك هذا الغزو المفاجئ؟ ألا يثير فيكِ أيَّة ريبة؟

– لماذا تُصرِّين على بَتر فرحتي؟ ولماذا أرتاب؟ أنا أحبُّ وأحدهم يحبُّني، أين الريبة في الأمر؟

– في هذا كلُّ الريبة!..

عادت الصَّغيرة مساء السَّابع عشر من نوفمبر 2009 إلى البيت منهكةً مستغربةً فرحةً حالمةً.. أَلْقتْ باستغرابها على فراش الأحلام المستهلكة وخلدت إلى التَفكير بالغد.. حبٌّ راقصٌ ومباراة الفصل بين الجزائر ومصرَ الفائز فيها متأهلٌ إلى مونديال عشرين عشرة بجنوب إفريقيا.

نامت وكل قلبها مع محاربي الصحـــراء في القلعة الحمراء بأم درمان السودانيّة، نامت وبعض قلبها مع صانع حلوى قلبها.

ككلِّ الشَّـــوارع الجزائريَّـــة.. الجزائريَّة كلُّهـــا.. جزائريَّة الوطن.. استولت على الجامعة المركزيَّة بقســـنطينة دوَّامة من الهتافات المشوبة بالجنون، كان الطَّلبة يخرجون يوميًّا للتَّجمهر وتشجيع الفريق الوطنِّي منذ مباراة الرابع عشر نوفمبر 2009 في «ســـتاد» القاهرة، وإلى غاية مباراة الفصـــل 18 نوفمبر، اتَّفَقَ الجزائريُّون على نذر أنفســـهم لهذه المبارزة..

لم نُصدّق قبلها بنظريَّة الشـــعور الموحّد للشعب الموحّد.. يومها فقط آمنّا بإمكانيّة وجود سيل ما، في مكان ما، لَمظلمة ما، من دون أن يكون هنالك في الأمر مؤامرة ما.. لأمريكا يدٌ فيها..!

لم تكن الصَّغيرة لتتغيَّب عن تجمُّعات الطَّلبة السُعداء حصرًا وقتها، فالاحتفالات المشـــجِّعة للوســـيم «حليش» ورفقائه كانت ضربًا من السعادة لفتاةٍ لم تَخْبَر يومًا حالات الفرح العجيبة المسمَّاة سعادةً.

***

- أمِّي! لقد عدت من المدرسة.. أين أبي؟

- لم يعد بعد، انزعي حذاءكِ وتقدَّمي لمساعدتي.

- أين أحلام؟ أنا لا أجدها

- ذهبَت لتحضر لنا قــارورة الماء من عند جارتنا أمِّ دنيا، فمنذ انتقلنا إلى هنــا صِرنا نعاني من ندرة الماء، ليتنا بقينا في الحيِّ الشــعبيِّ، على الأقل لم نكن لنعطش أبدًا وسط أهلنا.

- هل أذهب معها لأساعدها؟

تردُّ عليها باستهجان مفرطٍ:

- لا، أين تذهبين؟ سيقتلك أبوك إن خرجت!!

- أليس إن عاد أولا؟!!

أكمل والدها عمِّي عمَّار أســبوعه الثاني غائبًا عن المنزل تاركًا خلفه عائلته الصَّغيرة لمصيرها فالأهمُ بالنِسـبة إليه هي مظاهراته وتنديداته بإلغاء نتائج الانتخابات..

وُلِــدَتِ الصَّغيرة على فــراشٍ عتيقٍ مرميٍّ في ركــنٍ افتراضيٍّ لبيتٍ متواضع جدًّا وســط حيٍّ قسنطينيٍّ عاش كلَّ ســنين العنف الكبير،

وعاش معــه أهله آهات وويــلات الفترة العصيبــة دون أن يعلموا ببساطتهم من الذي استهزأ بحياتهم ولقمة عيشهم إلى هذه الدرجة؟

لا يعلمون مَــنْ بالتَحديد؟ يدركون فقط أنَّهم تــأذَوا كثيرًا جدًّا في أرواحهم، ومعيشــتهم، وكرامتهم، وعرضهم، ومالهم، وخبزهم.. تأذّوا كثيرا..

.. بغيابه نقل عمِي عمار نار الحرب التي تشتعل خارجًا إلى بيته.

بعد الهروب الكبير دائمًا تســاءلت الصَّغيرة: لماذا بَقِيَتْ أمُّها معه كلَّ تلك الفترة؟ لماذا لم تتطلَّق من البداية؟ لماذا لم تقتله؟ على الأقلِّ لماذا لم تكن تكرهه؟..

كانت أصغر من أن تفهم أنَّه ليس أتعس من بشريٍّ ممســوخ الذاكرة والقلب؛ مع العمر حتى ذكريات فجائــع القلب تحلو وحدها تقول لنا بأنَّنا عشــنا يومًا، وما من شيء ذا قيمة بذاكرة خالتي هجيرة سوى أيَّــام العمر الرَّائعة إلى جانب عمِي عمَّار، وهي تحتاجها لتبقى على قيد الحياة.. أليس الحبُّ رسالة الأحياء؟

ضَحَّت بعمرها، هي التِّي جعلها الحبُ كريمة في حُبِّها.. وعنفوانها.. ووفائهــا.. وأمومتهــا.. ودموعها.. وخوفهــا.. وجنونها.. وفي كلِّ مشــاعرها المنتبهة.. لكن عمي عمَّار كان يرى لو أَقَلَّت، لأنَّ عِشــقَها المغدق يزعجه، رغم أنَّه لم يَقُل ذلك مباشرة بل فضَّل مواصلة إهانتها بتجاهل أحاسيسها..

ضَحَّت بأيامهـــا دون أنْ تعلم بأنَّ سرقة الأعمار هوايةٌ جزائريَّة يحلو لرجالنا أن يمارسوها..

– دنيا..! دنيا..! أين أنتِ؟

– أنا قادمة.. آه أحلام.. هل أحضر لك قارورة الماء اليوميَّة؟

تُسرع مهرولةً وتجلب لها القارورة:

– هاهي! خذيها وعودي بسرعة أمي تقول بأنَّ الجو ماطرٌ وعليكِ أنْ تسرعي حتَّى لا تبتلّي.

– ولكنَّني لا أستطيع فهي ثقيلةٌ جدًّا.

– انتظري لأسأل أمِي وأذهب معكِ..

تنادي دنيا مِنْ وراء الباب:

– أمِي! أحلام لا تستطيع حمل القارورة وحدها، هل أذهب معها؟

خرَجَتْ أم دنيا من الغرفة واسْتَتَرَت وراء باب مخرج المنزل الموارب كعادة أمَّهاتنا الطَّاهرات من دواخلهـــنَّ حقًّا، والغبيَّات في طهارتهنَّ أحيانًا! ورَدَّت بحنان جيران الآهات والقهر:

– نعم ســـاعديها في حملها، ولكن أحلام يـــا ابنتي! لماذا لا تأتي أختك لأخذها؟ فأنت بحجم هذه القارورة تقريبًا.

تردُّ براءة أحلام على سؤالٍ بسيطٍ بغباء أطفال:

- أبي لا يحبُ أن تخرج من المنزل لغير الدِّراسة لو خرجت سوف يقتلها، فقد أصبحت امرأةً الآن وعليها البقاء مع أمِي في المنزل.

- امرأةٌ في التَّاسعة مِنَ العمر «عِيشْ تَسْمَعْ»..!! دنيا! ساعديها وعودي سريعًا فالبرد شديدٌ.

الأب هو عشق ابنته الأوَّل، هو مشنقة شرفها وهو سرداب عارها، هو أوَّل من يقول لها أنتِ أنثى على طريقته، هو أوَّل رجل قد يدلِّلها وهو أيضا أوَّل رجل قد يحتقرها.. الأب هو أوّل رجل يمرُّ في حياة ابنته.. فيا لهذه البداية..!

كم أحبَّت والدها أيَّام الماضي السَّحيق، وكم صيَّرها زمن العار صغيرةً سوداء إلى حدٍّ بعيدٍ.. بعيدٍ جدًّا، أكثر مما كانت تتصوَّر هي نفسها.

ذات حربٍ صارت تكره هذا الرَّجل لأنَّه لم يقف يومًا إلى جانبها ولا فكَّر في الأخذ بيدها، لا تذكر عنه في حياتها كلِّها سوى مقته لها وصُراخه الدَّائم عليها وتذمُّره من وجودها، يا له من سلحفاة بشريَّة..! باض هاتين الصِّغيرتين ثم تركهما للقدر، هل ستعيشان أمْ ستموتان؟ حتَّى هو لا يدري، لأن قنوات الاتِّصال بينه وبينهما ضعيفةٌ جدًّا، بل ونادرةٌ.

وليس هذا غريبًا فالدكتاتور دومًا يلغي وسائط تواصله مع شعبه.. وعمي عمَّار لن يكون استثناءًا!

***

في ريف الجبال الشامخات التي تَرسم ببساطةٍ خطَّ الفصل بين السَّماء والأرض ذات ربيــعِ عام 1994، رافقــت الصَّغيرة خالها رياض إلى منزل جدَّيها في أم البواقي لتقضي هنالك ما تبقى لها من عطلة الرَّبيع؛ عساها تتحوَّل إلى طفلةٍ صغيرةٍ ويُسْمَحُ لها باللَّعب مع بنات الجيران.. اللَّعب؟ هذا الأمر الغريب الــذي لم تعرفه يوما، لأنَّها في منزل عمِّي عمَّار امرأةٌ كبيرةٌ في الحادية عشرة من العمر..

ســنوات الانهيار التَّام لمؤسَّسات الدَّولة والذي طفت على الشَّوارع الجزائريَّة كلّها.. جزائريَّة الوطن.. أكملت الصَّغيرة الســنّ القانونيَّة لدخول المدرســة، ولكنَّ الأمر تأجَّل لسنةٍ إضافية لأنَّ عمي عمَّار لا يؤمن بضرورة تعلُّم ابنتــه، والبنات مكانُهنَّ المنزل.. يرى بأنَّ صوت ابنته عورة، وضحكتها عورة، ومشــيتها عــورة، ونظرتها عورة، أمَّا خروجها لِلَّعب فهو كبيرةٌ مِنَ الكبائر يجب في مرتكبته تطبيق الحدِّ..! يــرى بأنّ ابنته وُلدت امرأة.. لم يشــكّ يوما بأنّهــا مازالت صغيرة.. وجودها بالنِّسبة إليه أصلًا عورة...

لشدَّة تعلُّقها بوالدها وحبِّها الغريزيِّ له -وصِفةُ الغريزيِّ هي الصِّفة الأصدق، لأنَّ لا تفسير لهذا الحبِّ إلَّا الغريزة- حاولت ببراءةٍ عمياء ثَنْيَــهُ عن قراره المجحف؛ فعلًا أنَّها لم تعلم ماذا تعني المعرفة بالنِّســبة لفتاةٍ جزائريّةٍ لا تملك شــيئًا، ولكنَّها فقط كانت ترى ابنة الجيران دنيا

تذهب كلَّ يومٍ إلى المدرسة مرتديةً مئزرًا أبيضاً مطرَّزًا جميلاً، فأرادت الحصـــول علىٰ واحدٍ مثلـــه، وأن تذهب مع دنيـــا إلى حيث تذهب.. فتدرس وتتعلَّم وتلعب.. اللَّعب؟.. إلهي كم هو ممتع! لكن لا يمكنها الحصول عليـــه في منزل عمي عمَّار ولكن في منـــزل جدَّيها هذا ممكن جدًّا.. كلَّ عطلة..

.. يا تلك العطلة الربيعيَّة المبهجة التِي استقبلها فيها خالها «بمصيبةٍ» مـــع «أولئك» الذين طاردوه إلى حيث نَوت هذه المســـكينة أنْ تقضي بقايـــا عطلتها، كان جالسًـــا قريبًا جدًّا من باب البيـــت الريفيِّ المبهر الجمال بساطةً، والصَّغيرة متوسدةٌ ركبة أعزِّ النَّاس إليها، تلعب بزهر الياسمين الذي أبدعته شجرة جدَّتها:

– خالي! لماذا أبي يكره أمِي؟

أجاب متفاجئًا بسؤالها دون أن يتفاجأ بأخبار صهره:

– ولكنّه لا يكرهها هو فقط تَعِبٌ من العمل الكثير.

– لماذا يصرخ عليها إذن ويقول بأنّه لا يريد أن يترك الجميع؟

– أنتِ تقصدين «الجماعة» إنَّهم رفقاؤه في العمل.

– لهذا لا يبيت معنا إذن، إنَّه متعبٌ، ســـأخبر أمي بهذا عندما أعود يا خالي! حتَّى لا تسهر فوق السطوح بانتظاره بعد الآن، هو في العمل

فحسب لماذا تقلق؟ ولكن لماذا لا تصرخ عليه أمي فهي أيضًا تتعب من العمل الكثير والسَّهر..

تبتسم بعينيها كما تفعل دائمًا وكمن اكتشف أمرًا ذا بالٍ:

- خـــالي أظنُّ أنَّ أمي أقوى من أبي بكثيرٍ، فهـــي تتحمَّل التَّعب دون صراخٍ.

- انتبهي سوف تفســـدين هديَّة جدَّتكِ الجميلة فهي لا تهدي براعم الياسمين لأيٍّ كان.

تغمره بنظرات الحبِّ القديم مبتسمة العينين:

- وأمي تقول ذلك أيضًا خالي..!

خالي.. كم كانت الصَّغيرة تحبُّ تكرار هذه الكلمة..

- هذه الشجرة هي أحبُّ شيءٍ إلى قلب جدَّتكِ..

.. يشير بقلبه إلى بيت الجيران ذو أجمل ياسمينة وسط كلِّ هذا الجمال.

.. ياســـمينة ابنة الجيران، ورفيقة الدِّراسة الابتدائيَّة، ومعلِّمة أطفال القرية.. حبيبة العمر وأمنية رياض التِّي سيحقِّقها هذا الأسبوع عندما يزور والده العائد من سفره أمس فقط والد ياسمينة ويدخل السعادة إلى حياة ابنه..

– خالي خذ هذه الزَّهرة واشـــتمَّ رائحتها، ما أجملها أنا لا أملُّ رائحتها إنَّها تج....

قاطع رياض هـــذه اللَّحظـــات الصَّغيرة فجأة ووثـــب من مكانه، شَـــخَصَ لحظاتٍ يحدِّق بالدَّرب المشقوق وســـط شجيرات الزيتون مرهفًا سمعه، ثمَّ أطلق يركض خائفًا مصفرًّا، كمن رأى الموت راكضًا خلفه أو لعلَّه قد رآه فعلًا، اتَّجه رياض إلى الباب فعبره..

رأت الصَّغيرة كلَّ هذا دون أن تفهم ما يحدث، ولكنَّها لحقت بخالها إلى الدَّاخـــل أين وجدت جدها يصرخ بخالتيهـــا وخالها الأصغر أن يلتزموا الصَّمت وينفوا وجود رياض، وَقَفَتْ مندهشـــةً ولم تفهم ما يحدث، من الغرفة المقابلة خرجـــت جدَّتها التِّي كانت تفترش مرضًا مزمنًا أنهكها منذ زمنٍ بعيدٍ:

– ماتَّا يْلَّان؟ إينيمايا؟؟([1])

– أين خالي رياض؟ لماذا دخل يجري؟

انتبه جدها لوجودهما فنهرهما بعنفٍ لم تعهده بوداعته المألوفة:

– حتى لو متِّ لا تقولي بأنَّ خالكِ هنا في المنزل، وأنتِ لازمي فراشكِ وإياك الخروج.

---

1 – كلمات باللهجة الشاوية وتعني: ماذا هناك؟ قولولي؟؟

صعد رياض إلى الطابق العلويِّ حيث ســقيفة الحمام واتَّخذ له مكانا عِليًّا مُطِلًّا على البهو أين يحدث أنَّ حياته تُوشِك أَنْ تنتهي..

تواصل الجدَّة صراخها من هناك:

- ماتَّا يلَّان؟ ماتَّا كميوغن؟؟ يْلِّي! آرْواحْ عَاوْنايا[1].

لحظتهــا كاد البــاب أَنْ يَنْكَسِر بأقدام «أولئــك» لحماية الأم من شرِّ شــابٍّ جزائريٍّ بســيطٍ بطَّالٍ، لم تعطه الأمُّ الإفتراضيَّة فرصةً ليثبت مهاراته التكنولوجيَّة التِّي أفنى عمره هدرًا في دهاليز جامعة قسنطينة المركزيَّة ليكتســبها من دون طائل يذكر، وهاهي الأمُّ اليوم ترسل إليه من يســاعده على حلِّ مشــاكله الماليَّة والاجتماعيَّة والسِّياسيَّة وحتَّى العاطفيَّة، بإرســاله إلى مركز من مراكز العناية الفائقة بالشَّباب؛ يُحبُّ بعض المتشائمين لأسبابٍ تخصُّهم وحدهم أن يسمُّوها معتقلات!!

هنــاك حيث لن يحتاج إلى شيءٍ أبدًا، لن يحتــاج إلى ذراعيه الهزيلتين جوعًا، ولا إلى عينيه السوداوين غضبًا، ولا إلى جلده المكفهرِّ إثمًا، ولا حتَّى إلى قلبه المنهك سُهادًا، هناك ســوف لن يحتاج إلَّا للسانه ليردِّد دعاء المضطرِّ إلى ربِّه ألمًا..

ضَرَبَ «أولئــك» باب العائلة فكسروه، ودخلــوا عاليةٌ صرخاتهم يســألون عن رياض، خرجت الصَّغيرة وجدَّتها ممسكةٌ بيدها إلى بهو

1 – كلمات باللهجة الشاوية وتعني : ماذا هناك؟ ما بكم؟ يا ابنتي! تعالي وساعديني.

المنزل أين رأتا كلَّ ما يحدث عن قرب..

- وين راح الكلب؟

- عن من تبحث يا بني؟

- أين ابنك الكلب؟

.. يمسك الجدَّ بعنفٍ ثمَّ ينهره بعنفٍ أكبر ليسقطه أرضًا.

كان رياض على وشـــك النُّزول ليجنِّب عائلتـــه ذلَّ ضرب الكرامة المهين، عندما تذكَّر وصيَّة أبيه: إذا أردت رضاي فلا تنزل مهما حدث يا بُنَي.. إنْ خرجت فلن تعود أبدًا.

***

استمرت الصَّغيرة في عملها وكانت تعمل كلَّ أيَّام الأسبوع وتقصد الجامعة يوم الثلاثاء كما اتفقت مع صاحب المحلِّ، في البداية بدا لها العمل صعبًا ومضنيًا ولكنَّه بمرور الوقت أصبح سهلًا ممتعًا خاصَّةً بعد أن أخذت علاقتها بزميلاتها تتحسَّن، كلُّ شيءٍ سار على ما يراد عدا شيء واحد.. الرَّجل.. فهي لم تلتق به سوى مرَّاتٍ قلائل وكلُّ ما دار بينهما..

- أهلًا..

- صباح الخير..

توقَّعَت بأنَّه غير مهتمٍّ بها، فأقلَّت كلامها معه، رغم أنَّ عينيها المبتسمتين تتبعانه كظلِّه.

- هل كلَّمَكِ اليوم؟

- كلَّا لم يفعل، مذ أوصلني إلى المنزل في الثامن عشر نوفمبر لم يكلِّمني، فقط هو ينظر إليَّ عندما ينهي عمله ويرحل مساءًا، لا يزيح نظراته عنِّي، ولكنَّني لا أفهم شيئًا من نظراته؟ هل أحبَّني كما أحببتُه؟ أخبريني ماذا تَحْسَبين؟

تردُّ أحلام وكأنَّها خبيرة عشقٍ هي التِّي لم تكلِّم رجلًا في حياتها:

– لا أظنُّ نظراته فارغةً، إحســاسي يقول بأَنَّــه يحبُّكِ.. لقد قالها لك ذلك اليوم لا أظنه يكذب.

– هل تظنِّين ذلك؟ أنا أؤمن بإحساسك فهو لا يخيب أبدًا، لطالما كان صحيحًا.

تتدخَّل بينهما دنيا كمن لم يتحمَّل كلامهما:

– تتحدَّثــان عن الحبِّ وكأَنَّكما تعرفانه.. أنــتِ تتعلَّقين لأوَّل مرَّةٍ في حياتكِ برجلٍ، وأنتِ لم تكلمي رجلًا قطُّ.. وتتحدَّثان عن الحبِّ.

التفتت أحلام إلى دنيا وكأنَّها استنتجت أمرًا خطيرًا متسائلةً:

– وهل عرفت الحبَّ؟

بعد أن تنهَّدت تنهيدةً طويلةً:

– بل عانيت من الحبِّ.. ويلات الحبِّ..

– مــن ويلات الحبِّ! تســاءلت الصَّغيرة.. مــاذا تقصدين بويلات الحبِّ؟ هل للحبِّ ويلاتٌ؟

تبتسم كأنَّها تتحدَّى شيئًا ما:

– للحبِّ أهوال لا أتمنى حتَّى لألدّ أعدائي أَنْ يمرّوا بها.

– وهل مررت بها؟

– لست وحدي، كلُّ من تعرفنهم مرُّوا بعذابات الحبِّ وآهاته، وكلّهم تغلَّبوا على عذاباتهم ما لم تغلّبهم أوَّلًا.

– إييه هذا يعني أنَّك تعذَّبت مِنَ الحبِّ؟ احكي لنا يا شـــيطانة، لماذا لم تخبرينا بهذا من قبل ألسنا صديقتيكِ؟

– ماذا أخبركما؟ فهذا سرٌّ إن انكشف سوف أموت حتمًا.

– تموتين؟ لماذا تموتين؟ هل الحبُّ جريمة؟

– بل وأكثر، إنَّه شبهة السَّعادة وعُروبَتُنا تُحِّرمُ السَّعادة على أيَّة امرأة.

– هل الأمازيغ أيضًا يحرِّمون السَّـــعادة على نســـائهم؟.. تســـاءلت الصَّغيرة..

– أنتِ الشاويَّة! فأخبريني..

– لا أعلم، إنْ كان كلُّ رجال الشَّـــاويَّة كأبي، فلابدَّ أنَّ السعادة جُرْمٌ يستحقُّ الرَّجم..

– إذا كان كل الرِّجال كعمِّي عمَّار فلن تولد أيَّة إمرأةٍ في الوجود..!!! دعينا لا نقيس عليه.

تركـــت الأختين منذهلتين، وراحت تحكي حبَّها دون أن تقول ذلك تمامًا:

- أن تحبِّـــي هو أمرٌ رائعٌ، ما أجمل أن تحبي أحدًا يبادلك الحب، عندما تُحبين تســـعدين تودِّين لو توزعي سعادتك على الجميع فهي تكفي وتزيد، عندما تحبِّـــين تبذلين وتعطين، عندما تحبِّين تصبحين أقوى، فالحبُّ هو حالة اللَّاخوف من أيِّ شيءٍ بينما جروح الحبِّ هي حالة الخـــوف من كلِّ شيءٍ، عندما تحبِّين تزداديـــن بهاءًا وجمالًا أجمل من الجمال نفسه..

استمعت الصَّغيرة إليها وكلُّ قلبها مع رجلها الأصلع، فدنيا تشرح لها دون أَنْ تعلم ما كانت تريد قوله تمامًا، ولكنَّ تساؤلًا كبيرًا ضايقها فقاطعت دنيا:

- كيف لحبٍّ قويٍّ كالذي تتحدَّثين عنه أن يُوَلِّد عذابًا، إذا عذَّبك فهو ليس حبيبك، وحبُّكِ ليس حقيقة إنَّه وهمٌ وسرابٌ.

- إذا لم يعذِّبـــكِ فهو ليـــس حبًّا، قوَّة الحبِّ تقـــاس بعذابه، كلَّما كان عشقكِ جبَّارًا كان عذابكِ أكثر جبروتًا.

- ولكنِّنـــي لم أفهم مالذي يعذِّبكِ؟ أهـــي الخيانة والغدر؟ إذا أحبَّك يومًا رجلٌ، فلن يخونكِ ولن يغدر بكِ، وإلَّا فلما كان أحبَّك يومًا.

- أظـــنُّ بأنَّه من الجيِّد لو اســـتطعنا نحن الإناث أن نســـتعدَّ للخيانة والغدر ونقبلهما فهما أمران حتميَّان لا هروب منهما.

- ربما هي حتميَّةٌ عشقيَّةٌ كما تقولين لا يمكن تجنُّبُها، وعلينا أن نستعدَّ لها ولكن أَنْ نقبلها!.. هذا مخزٍ لأنَّنا إِنْ فعلنا سنفقد الشعور بإنسانيَّتنا الكاملة الإنسانيَّة..

لم تفهم أحلام نقاشهما جيِّدًا وكلُّ ما كان يهمُّها:

- هل نعرف الرَّجل الـــذي تتحدَّثين عنه؟ هل هو جارٌ لنا؟ من هو؟ هيَّا قولي..

- هو لاشيء في ذاكرتي وخيالي، هو صفرٌ في معادلة حياتي..

- صفر!! لا تنـــسي أن الصفر هو أهم الأرقام عزيزتي.. اســـتهزأت الصغيرة..

- ولكنَّكِ كنتِ تقولين بأنَّ الحبَّ سعادةٌ كبرى كيف تبدِّلين رأيكِ؟.. باستغراب تساءلت أحلام..

- الحبُّ هو السَّعادة الكبرى، ولكنَّ الرَّجل الذي تحبِّينه ليس إلَّا ذئبًا يرتدي جسد إنسان، ويومًا ستظهر صفاته الحيوانيَّة وستنبذينه حتمًا، أمَّا حُبكِ له فهو أجمل شيءٍ ســـيتركه لكِ.. لأنَّه شـــعورك أنتِ، إنَّه شعورٌ نبيلٌ نابعٌ من دواخل دواخلكِ.. وستعتزِّين به لأنَّه نقيٌّ.

- لا أظنُّني أفهم كلامكِ! سأكون في المطبخ إن احتجتماني، أنا جائعة..

غيّرت الصَّغيرة مكانها وجلست قريبةً من دنيا، تريد أَنْ تكون لديهما

أسرار، فهذا يستهويها.. صديقتها تستحضر عواصف قلبها عظيم النَّزف، وكثيرًا ما تتنفَّس بعمقٍ حتَّى تُوصل الأكسجين إلى كلِّ جزءٍ مازال على قيد الحياة فيها:

– عندما انتهى كلُّ شيءٍ بيننا، ظننت بأنَّني سأموت مِنَ الألم، كان ألمي كبيرًا جدًّا، أكبر ممَّا قد يتخيَّله الجنون، كان يفصلني عن الانشطار ذبحة عاطفيَّةٌ.. وقد حصلت عليها..

قامت وسارت بضع خطوات، أمسكت طرف السِّتارة الرَّماديَّة الرَّثَّة بيدها من دون أَنْ تبدو عليها علامات القرف ثمَّ واصلت:

– عندما أتذكّر كلَّ ذلك الألم أشفق على نفسي كيف تجلَّدتُ وقاومتُ؟.. حين أعيد النَّظر إلى الوراء أرى نفسي معذَّبةً مرميَّةً بين دفاتر شِعري عليَّ وإِنْ لم أستطع إعادته إليَّ أَنْ أعبِّر عمَّا أشعر به فلا تغرقني دموعي..

شعرت دنيا باليد التِّي تنفض عنها بقايا غبار الحريق من على كتفها بنعومةٍ لا تتقنها إلَّا الصَّديقات حقًّا، ثمَّ سمعت رفيقة الدَّرب تقول:

– كم تألَّمتِ صديقتي! لم أعلم بأنَّك عانيت كلَّ هذا في غيابنا، أنا آسفةٌ لهذا.

– لا عليكِ صديقتي! فأبدًا ليس ذنبكِ، وما عانيته في الحيِّ الشَّعبيِّ يكفيكِ، فلا تعتذري على شيء، المهمُّ أنَّ عمِّي عمَّار قرَّر العودة بكِ

إليَّ بعد زواجه ثانيةً.

- كيف أنتِ الآن هل تماثلتِ للشِّفاء؟

- بعد مرور أربعة أشهر على رحيله كنت أنظر إلى نفسي كلَّ يومٍ فأرى بوضوحٍ آثار ما مررت به عليَّ؛ على مشـــاعري.. على وجهي.. على تصرُّفاتي.. لقد شوهني ذلك الحبُّ..

- كم هذا بشع!..

- بعد مرور ســـنة كان لديَّ حبيبٌ آخر، ربَّما خـــفَّ الألم وربَّما زال، ولكنَّ الدُّموع في عينيَّ لم تجف وابتسامتي دائمًا تخفي حرقةً ما، حين أســـندت رأسي إلى صدر الآخر بكيـــت.. بكيت كثيرًا فقد تذكرت ألمي، بكيت لأنَّ الدُّموع غلبتني، وأبدًا لم أســـتطع حبس دموعي.. بل بكيت لأنَّني لم أعد أستطيع حبس دموعي فأنا غيرُ التِّي كنت..

- أريد أن أعرف من اخترع الحبَّ لأهاجمه بمنجل..!

مبتسمةً:

- أنا أشكر وجودك إلى جانبي.. تعلمين! يوم الفراق سألت نفسي: ما هي أمنيتي الأخيرة؟

- وماذا كانت؟

بتحدٍّ تضحك هذه المرَّة:

- أَنْ يعود غريبًا بالنسبة إليَّ..

تحنو على جرح صديقتها، وتشدُّ على بقيَّة قوَّة قتالها بثقة مبصرة:

- سيعود غريبًا.. بجمالكِ ستتغلَّبين عليه، لن توجعكِ الذِّكريات أكثر، ستتغذَّين بقذاراته وتقاومينه، صدِّقيني يا رفيقة الدَّرب.. سوف تتمدَّدُ الأفعى وسوف تقطعينها..

***

حبٌّ من النَّظرة الأولى.. هذا أوَّل ما استطاعت الصَّغيرة أَنْ تفسِّر به ما حدث لها في السَّـــابع عشر نوفمبر 2009.. أحبَّت رجلًا لا تعرفه هي حتَّى لم تره من قبل، لكنَّها حين نَظَرَت إليه أدركت بأنَّه هو.. ذاك الرجل من بلاد الأوهام، لامس الرجل وجدانها وسلخ عنها مشاعر البغض المكنونة في صدرها، لتستولي عليها رعشةٌ خانقةٌ تعتصر قنوات الحبِّ الدَّفين لديها التِّـــي تتوالد وتتكاثر فتعظم ويعلو صخبها ليظهر إلى الملأ.. حبٌّ من النَّظرة الأولى..

لم تعلم الصَّغيرة عندما اســـتنجدت بوالد دنيا صديقتها المقرَّبة ليجد لها عملًا تمتهنه في أوقات الفراغ من طلب المعرفة بأنَّها ســـتتعثَّر برجل حياتها يومًا.. هنا.. على باب أعرق محلٍّ للحلويَّات بـقسنطينة.

منذ يومين ذهبت وقابلت صاحب العمل السَّيد «نبيل»، فتحدَّثا عن أمور كثيرة:

– متى أبدأ؟ ما هي واجباتي؟

.. وغيرها من الأمور الضَّرورية والروتينيَّة لسير العمل كان أهمُّها:

– كم الرَّاتب؟ ومتى أقبضه؟

كاد نبيل يلتهم عنفوانها بعينيه، ولم تكن تعلم هل أثارت فيه كل هذا

الإعجاب؟ وهذا مستبعد لأنَّها لم تكن جميلة حسب عمِّي عمَّار..! أو أنَّها أضافت إلى دفتر الذكور المستذئبة زير نساءٍ آخر.

يملك الذكر.. عفوًا يملك الرَّجل محلَّ كعكٍ وحلويَّات معروفًا، والعمل المطلوب منها هو بيع الكعك للزَّبائن، هذا لم يكن ليحرجها أبدًا، ليس لقوَّة شخصيَّتها تمامًا ولكن لأنَّ أسطورة التَّخرُّج العظيمة تكاد تندثر، والصَّغيرة تحتاج إلى النُّقود لتحيَى أسطورتها.. فيا للفقر اللَّعين..

انتهت المقابلة وخرجت من المكتب مسرعة، كانت ترتدي سروالًا أسود وجزمةً داكنة السَّواد تُظْهِر جماليَّة ساقيها، هي التِّي تشبَّعت للتَّو بجرعة اهتمامٍ زائدةٍ تقتل المريض أحيانًا، وبينما كانت تسوِّي خمارها البنفسجيَّ في طريقها إلى الخروج، أمام مرآة المدخل أحسَّت بنظراتٍ خبيثةٍ تلاحقها، هذا شعورٌ مألوفٌ..

.. أنت تمشي على درب حياتك وأحدهم منزعج من تقدمك إلى الأمام وغير معجب بشباب روحك.. ولكنَّها ليست في البيت وعمِّي عمَّار ليس في مجال تغطيتها، فمن أين تنخرها النظرات؟ استدارت يسارًا فلم تر أحدًا وهذا غريب لأنَّها متأكدةٌ من رأيتها لظلٍّ ما، استغربت الأمر قليلًا وواصلت سيرها، عند خروجها لم يغب عنها شعور الإرباك الملازم فاستدارت يمينًا.. يمينًا.. حيث مكان المرأة دائمًا على يسار الرَّجل!!

بدا لها مألوفًا جدًّا.. شعرت بأنَّها تعرفه منذ أبد..

- رأيتــه يا إلهي، نعم إنَّه هــو أنا أعرفه يا أيَّتها السَّــماء.. هذا فارس أحلامي.

يبدو رجلًا، يبدو مهمًّا، يبدو لطيفًا، يصلح أبا، يظهر متعلِّمًا.. جدًّا.. يبدو.. لا يهم لقــد أحبَّته هذه الحمقاء بمئــزره الأبيض المفتوح على قميص أصفر بسيط جدًّا ونظَّاراته الطِّبِّيَّة.. من النَّظرة الأولى.

عادت الصَّغيرة ذلك المســاء إلى البيت منهكةً مستغربةً فرحةً حالمةً، ألقت باســتغرابها على فراش الأحلام المستهلكة وخلدت إلى التفكير بالغد..

تجمَّلت صبــاح الثَّامن عشر نوفمبر 2009 وتزيَّنت، فهي ماضيةٌ في طريقهــا إلى قاعة مؤتمرات الحياة من أجل التوقيــع على اتفاقيَّة الفقر بحروف اســمها كاملةً من دون الرُّجوع إلى برلمان عمِّي عمَّار، واليوم بالذات قد تلتقي بحبِّها من النَّظرة الأولى.

وصلــت إلى محلِّ العمل وكانت أوَّل الواصلــين فقد أبكرت قليلًا، وهكذا اســتغلَّت فرصة وحدتهــا لتتعرَّف على المــكان، تجوَّلت بين الأشــياء الصامتة وتفرَّجت على إناءٍ دائريٍّ وآخر مســتطيل، وهذه ثلَّاجــة للمشروبات وأخرى للكعــك، وهذه «بَقْــلاوَةٌ» و «طَمِّينَة اللَّــوز» و «قْنِيدْلَات» و «عرَايْش» وغيرها الكثير من أنواع الحلويَّات

التِّي لم تحلم الصَّغيرة قطّ أَنْ تتذوَّقها يومًا لخياليَّة أسعارها مقارنةً مع ميزانيَّة «دولةٍ صغيرةٍ ناميةٍ» كجيبها..

يعبق المكان طوال الوقت برائحةٍ حلوةٍ مدغدغةٍ للمشاعر، وكأنَّ لهذه الحلاوة ارتباطًا عميقًا بلذَّة الحواس!

بعد دقائق قليلة بدأت العاملات بالتَّوافد إلى المحلِّ واحدة بعد أخرى، وحاولت التَّعرُّف عليهنَّ تباعًا.. وكعادة عاملات «جزيرة نبيل» في استقبال عاملةٍ جديدةٍ بينهنّ فقد رحَّبن بها ترحيبًا يليق بهذه السُّمعة «الطيِّبة الذِّكر».

أخذ شذى تكرمل السُّكَّر يتراجع وانتشرت رائحةٌ أخرى متسلِّلة في المكان، هذه المرَّة هي ليست مدغدغة.. نتانة اللُّؤم.. للؤم الحاقد رائحة نتنة تجعل للؤم نفسه نتانة تذكّرك بـ «جزيرة نبيل»..

هي تختبر للمرَّة الأولى مهانة أَنْ تكون طالبًا جامعيًّا يمرِّغ الاحتياج كرامته في وحل عمل يُذِلُّ رفقاء المهنة فيه كلَّ من له علاقةٌ بالعلم، لمداراة غيرتهم أحيانًا وأحيانًا لسخطهم على الحياة التِّي لم تضعهم في نفس الموضع الذي وضعت الطَّالب فيه، في زمن رَتَّب الطلبة دائمًا في ذيل قائمة العامَّة، ووجب بالتَّالي على رفيقات مهنة الصَّغيرة أَنْ يتَّخذنها طابةً يَلهِينَ بها، وبدل أَنْ يُخبِرنَها ما تفعل، نَبَذْنَها وأَهملنَها وأوكلنَها أعمال القذارة..

- اغسلي ممسحة الأرض..

- امسحي أرضيَّة المرحاض..

- نظِّفي صندوق القمامة..

- من كان يقوم بهذه الأعمال قبل مجيئي؟ هل كنَّ بانتظاري؟ تساءلت في صمت..

بداية ظلَّت تعمل في ذهول وكلَّما تذكَّرت شهادتها التِّي لم يعد يفصلها على معانقتها الأسطوريَّة إلَّا أشهر معدودة استعادت قدرة ابتلاع الأمر ولو على مضض، فالبدايات دوما صعبة، وحماس هذه الصَّغيرة يفوق أيَّ درجة صعوبة، إنَّ لها حماسًا كبيرًا جدًّا ولكنَّه يحتاج إلى التَّوجيه الأخلاقيِّ والمنطقيِّ أحيانًا، وإلى تحكيم العقل عند الانفعال.

بعد ساعةٍ من العمل المضني والمقزِّز الذي لم يَبْدُ بأنَّه سوف ينتهي، وعندما همَّت الصَّغيرة بتنظيف زجاج الواجهة الأماميَّة للمحلِّ، فُتِحَ الباب عن امرأةٍ ما، بطول الصَّغيرة تقريبًا أو أطول قليلًا، بشرتها الخمريَّة البرَّاقة تتلائم كثيرًا مع عينيها الزرقاوين، ممتلئة الوركين، طويلة الأذرع، يرتديها خمارٌ أزرق منهك الزُّرقة، ذاهبٌ في بشاعته إلى أقصاها، منته الصَّلاحيّة منذ زمن، يوحي بذوقٍ ما، دون أن يدلَّ على رُقيِّ صاحبته التِّي تشرف على عمرٍ لا أحبُّ اسمه مطلقًا، لنقل بأنَّها

امرأةٌ أربعينيَّةٌ تقارب الخمسين، وهذا يُفَسِّر سوء لباسها.

.. «نبيلة».. لم يكن اسمها حقًّا بقدر ما كان حبًّا منها لنبيل.

دفعت الباب بقوة ودخلت دون أن تمسح رجليها في الممسحة وكأنَّها تعمَّدت ذلك، مشت منتشية بسلطتها وأخذت البنات في تحيَّتها بإجلال، ولكنَّ الصَّغيرة لم تفعل، كلُّ ما خطر لها حينها:

- امسحي رجليك لقد نظفت الأرض للتو.

- أرجو أنَّني لم أسمع ما سمعته، أعيدي ما قلته يا أنتِ.

إنَّه ذلك الشُّعور المألوف، أحدهم يمقتك، يزعجه وجودك، أحدهم يكرهك.. لأنَّك حيّ..

منذ يوم كان العار جديدًا لم تتراجع الصَّغيرة إلى الوراء ولا حتَّى أمام عمِّي عَمَّار، فكيف تتراجع الآن؟ هي بالأصل منفضحة بنفسها وليس بمقدورها إخفاء أنملة من مشاعرها وقد توصَّلت في هذا إلى المطلق:

- قلت امسحي رجليكِ فقد نظَّفت للتَّو.

- إذن أنتِ نظَّفت الأرض؟

توجَّهت إلى ثلَّاجة المشروبات الجرثوميَّة، واثقة الخطى، رابطة الجأش، عازمةً على طرد العدوِّ من أرضنا الطَّاهرة، حرصًا منها على

مصالح الأمَّة- كلمات حنين مستوحاة من أرشيفنا العربيِّ- وأخرجت قنبلة نوويَّة ألقتها على وجه الصَّغيرة لو استطاعت إلى ذلك سبيلًا، إذ ليس أجمل من منظر إنسانٍ يتحوَّل إلى كومة رمل وتراب في لحظات، حسب ما تعلمناه من النُّور المشعِّ لمعتقدات الجيش الأمريكيِّ، فكما يقال.. المنتصر دائما هو من يكتب التَّاريخ؟.. ومعتقداتنا أيضًا كما يبدو..!

أخرجت من الثلَّاجة قارورة «بيبسي» كبيرة وأفرغتها على الأرضيَّة النَّظيفة تستعرض نفوذها الصَّارخ كما يُوهِمُها بذلك عمرها المهدور حبًّا في محلّ نبيل، وسط اندهاش الصَّغيرة وفضول زميلاتها حول ما سيحصل..

- ماذا.. لماذا.. كيف.. ما هذا..؟ يا..!

- الأرضيَّة متَّسخة مجدَّدًا نظِّفيها..

- لماذا أفعل؟ أنا.. أنتِ.. ما هذا؟

كانت إحدى البنات تشير إليها من وراء ظهر نبيلة بالسُّكوت وأخرى تومئ لها بالتَّنظيف، ونبيلة ترمقها بنفس النَّظرات الخبيثة التِّي تبعث فيك الشُّعور المألوف..

لم تعرف ماذا تفعل أمام أوَّل اختبار لها خارج البيت، هل تردُّ صامتةً كما تفعل مع عمِّي عمَّار؟ هل تحنو عليها كما كانت تفعل مع جدَّتها؟

هل تبتسم كما تفعل مع أحلام؟ هل تصرخ بوجهها كما تفعل مع زوجة أبيها؟.. ياله من مأزق حقيقيٌّ فهي لا تعرف أكثر من هذا.

– آه نبيلة! جئت قبلي اليوم، ما بِكُنَّ لماذا لا يزال المكان متَّسخًا! هيَّا بسرعة يا بنات، اليوم لدينا الكثير من الطَّلبات للاحتفال بالفوز المحتمل للمنتخب.

كسر نبيل تصلُّب الصَّغيرة أمام الموقف الرَّهيب الذي وُضِعَت فيه بطمعه النَّهم، وبدل أَنْ يقلق من هذه التَّصرفات، اعتبرها مجرَّد ثورة غضبٍ ذات تأثير منعدم، دون أن يهتم للذي غضب وسبب غضبه، فلا تدخل مثل هذه الأمور في دائرة حساباته..

.. من قال بأنَّه ليس للطَّمع مزايا حسنة!

انصرف كلُّ ذي عمل إلى عمله، وانصرفت الصَّغيرة إلى اندهاشها وخوفها وممسحتها..

بعد تنظيف طويل دام حوالى السَّاعتين، بدأ صانعوا الكعك المنهمكون حدَّ الانصهار في العمل بإنزال تحفهم اليوميَّة، فالمحلُّ متكوِّنٌ من طابقين، في الأرضيِّ تعرض كلُّ السِّلع وفي العلويِّ يعيش العبيد في المقر السِّري.. المختبر الشَّهير لنبيل أين تُصنع أشهى أنواع الحلويَّات في المدينة.

إنَّه محلٌّ عريقٌ لا يُســـمح لك أَنْ تتخيَّل أزقَّة قسنطينة من دونه، لأنَّه خطأ جغرافيٌّ فادح، فتلـــك الرَّائحة الحلوة تشـــارك بانتظامٍ ضارب القِدَم في عزف أجمل ســـيمفونيَّات هذه المدينة وربَّما أوحدها.. رائحة الكعك العتيق، رائحة شـــواء رؤوس الأغنام، روائح مبهرجة مختلطة منبعثة من رحى «الشط»، عبق أغنية لعبد الحكيم بوعزيز لها في أنفسنا ما للرائحة الحلوة من دغدغة غريبـــة «لُغرام وأهوالو».. تطربك من محلٍّ قريب، ســـحابة دخان التِّبغ القادمة من مقهى النجمة، اســـتلقاءٌ أبدِّي مهولٌ يفرضه علينا الجسر المعلَّق بحبالٍ من حديد، جبال شامخة وصخـــورٌ عاتيةٌ تتحدَّى في جماليَّتها أجمل المناظر على الإطلاق، جيش فناني التَّسوُّل الإبداعيِّ الذين تثبت بفضلهم يوميًّا لنفسك بأنَّك بطلٌ بعد تســـلُّلِك بينهم من دون أن تُدخِل يـــدك مرغمًا إلى حيث النُّقود.. «أَعْطِينِي خَمْسَالَافْ بَرْكْ» «يَاوْ اللِّي أَعْطَانْي يَاوْ يَرْحْمْ وَالْدِيه» «صَدَكة صَدَكة» «رَبِّي يْزَوْجْكْ آ زِينَة أَعْطِينِي نَشْرِي خُبْزَة»..

في قسنطينة للتَّسوُّل أدبٌ نبيل، أشـــعارٌ وألحانٌ وآذانٌ صمَّاءٌ لا تنهر السَّائل بل تتظاهر بعدم وجوده..

.. استمع إلى هذا اللَّحن أليس رائعًا!!؟

التَّاسعة والنِّصف صباحًا بتوقيت قسنطينة، وفود النِّساء تتوالى على الشَّوارع، يا لها من مدينة نسائيَّة بامتياز..

فُتِحَ المحلُّ وأخذ يضيق بأهله، والضِّيق صار مذهبًا قسنطينيًّا آخر.. وأخيرًا امتــلأ بالزبائن وامتلأ قلب نبيــل بالفرحة واغرورقت عيناه الحالمتان بدموع الحبِّ العذريِّ الطَّاهر الشَّريف للنُّقود.

مبــاراة الأخــضر الجزائريِّ تســتهلك الأعصاب وتحتــلُّ صدارة الأحــداث دون منازع لم يكــن يفصل النَّاس عن الجنــون إلَّا الفوز مســاءًا، ولم يكن باســتطاعة شيءٍ أن يلهمهم بعض الهدوء في صباح يومٍ كهذا..

***

عمِّي عمَّار ذو السِّـتِّين عامًا وُلِدَ في قريةٍ شاويَّةٍ بريئةٍ لم يُغيِّر الإنسان فيها شيئًا من خلق الله فكانت تبدو رائعة الإبهار- بعيدًا عن قسنطينة التِّي سـكنها مرغمًا لاحقًـا- عندما هاجم الجنود الفرنسـيُّون قرية «البير لصفر»، يومها اضطَّر والده أَنْ يحمله على ظهره تحت قشـابيَّته، ويُوكِـت يد ابنه الأكبر إلى خصره، ويحمل بيده رزمةً من عجين التَّمر ملفوفةً في فـراء معزاة ابنه الأصغر عمَّار؛ التِّـي كانت.. ويفر بهما إلى أقرب مكان آمن فالفرنسيون يقتلون كلَّ ذكور القرية وعليه أَنْ يفعل كلَّ ما يستطيع ليعيش هذان الصَّغيران المنهكان بردًا وجوعًا وذلًّا إلى ما بعد الحرب.

كلَّما جلس عمِّي عمَّار إلى فكره أمعن في تذكُّر والده إمام القرية ومعلِّم أولادها، لم تغب يومًا صورة «السِّي لخضر» عن مخيلة عمِّي عمَّار فرغم صغر سنِّه عندما حدث أَنْ أخطأت خمس رصاصات طريقها فتعثَّرت برأس أبيه ذات شـتاءٍ عام 1958، إلَّا أنَّه يذكر جيِّدًا عمامته الصَّفراء المزركشـة بألوان السُّمرة الشَّـاويَّة مضرَّجةً بدماء الموت الذي حملته الرَّصاصات الطَّائشة والتي لم نعرف يومًا لماذا تتعثَّر برؤوس الرَّائعين وحدهم؟

يذكر جيدا منظر الجلـد الملفوف على كتلة التمر وهو يتدحرج بعيدا عنه وعن أخيه فيلحقه الفرنسيون ولا يجدون إلا الجد خلف الصخور،

بينما خبأهما والدهما عند الجحـــر الذي حفرته الأرانب بأمر من ملك الملوك كما يظن.. لم ينس الابن يومًا أزيز أنفاس أبيه وهو يكرِّر: «يا الله انصر دينك على هذه الأرض، اللَّهم إنَّا مغلوبون فانتصر».

وقد انتصروا يا جدّ ولم تكن هناك لتردِّد: تحيا الجزائر.. تحيا الجزائر.. تحيا الجزائر..

منذ الأشهر الأولى لولادة الصَّغيرة بدأ عمِّي عمَّار ينطوي على نفسه أكثـــر، وقلَّ كلامه خاصَّة مـــع زوجته، هو الذي قـــضى حياته لاهيًا ماجنًا، ظنَّ الجميع بأنَّه بدأ يعي مسؤوليَّاته تجاه عائلته..

ظلَّ الرَّجل وطوال الفترة الممتدَّة بين تعديل دســـتور 1989 وإلغاء انتخابـــات 1991 مربوطًـــا بتجمُّعات حزبٍ فتـــيٍّ مولودٍ للأفلان، خارج من رحم المحنة التِّي تمرُّ بها البلاد والمستفيد من مظلَّة التَّعدُّديَّة التِّي اضطرَّت الدُّول الإفريقيَّة للتَّظلُّل بظلِّها فدفعت الثَّمن غاليًا..

انتقل عمِّي عمَّار فجأةً من عالم إلى عالم مختلف، من المجون إلى التَّشدُّد المتطرِّف بين ليلة وضحاها.. أيكون هو المهديَّ المنتظر يا ترى؟..

بينما كان يبيت ساهرًا ينتقل من بيت لآخر ومن ملهى لآخر؛ عفوًا.. مـــن عرس لآخر، قرَّر الآن أَنْ يصبح رجـــلًا متديِّنًا ملتزمًا يحلِّل هذا ويحرِّم ذاك:

- لا تسلِّمي على عمِّك من الآن فصاعدًا.. هذا حرام..

ردَّت خالتي هجيرة بتساؤلٍ دون أن تبدي حيرتها الممنوعة غالبًا:

- ولكنَّه عمِّي وعمُّك وأخو أبي وأخو أبيك كيف لا أسلِّم عليه؟

لا يوجـــد في الدُّنيا أفضل من رجلٍ جزائريٍّ ليردَّ على هكذا ســـؤال مســـتخدمًا عبارات الدِّكتاتوريَّة المنزليَّة المستنسخة إعجابًا عن « كذبة الشرف الكبرى» :

- قلت لا تسلِّمي وكفى.. تعرفين أحسن منِّي؟

ما أبلغ هذا السُّؤال.. تعرفين أحسن منِّي؟

طبعًا لا، كيف تعرف المرأة أحسن من الرَّجل؟!

حماسة عمِّي عمَّار ســـاعدته ليكون من أوائل المهاجرين إلى الحبشة.. عفوًا إلى العاصمة لنصرة إرادة الله على الأرض، والمشاركة في العصيان المدنيِّ صيف العام 1991.

عشَّـــش الخوف في كل أركان المنـــزل الإفتراضيِّ وقبلـــه في قلوب ساكناته، في الأيَّام التي يغيب فيها عمِّي عمَّار كان المكان يبدو موحشًا ومخيفًا جـــدًّا لفتاتين صغيرتين مع أمِّهما.. أوليـــس الوقت مبكرًا على زرع الخوف في نفسَيْ طفلتين؟

.. حينذاك لا أحد توفَّر لديه وقتٌ للتَّفكير في نفسيَّتهما.

- أختي..! أختي! استيقظي أحدهم على الدَّرج.

بصعوبة فتحت الصَّغيرة عينيها المبتسمتين وتساءلت بصوتٍ خافتٍ:

- أنت متأكِّدة! ولَكِنْ أين أمِّي؟

- ربَّما هي من تمشي على الدَّرج.

- ابقي هنا وسأرى ما يحدث.

خرجت من الغرفــة الافتراضيَّة وتبعت الظِّلَّ الذي تحســبه لأمِّها بحذرٍ حتى انتهت إلى فتحة بابٍ ضيِّقة تفضي إلى سطح المنزل..

مع توالي الأشــهر والسِّنين تلبَّســت أحداث العنف شكلا آخر، فما عادت المظاهرات والإعتصامات تُقْنِعُ مفتعلها..

كل ليلةٍ في غياب عمِّي عمَّار تحمــل خالتي هجيرة معها عصًا كبيرة وتصعد إلى الأعالي بعد أَنْ تتأكَّد من نوم بنتيها لتحرس منزلها بشجاعةٍ نادرةٍ أو ربَّما بحماقــةٍ نادرةٍ، تجهِّز قارورة للغاز مســبقًا وتأخذ معها قدَّاحةً وشــمعةً من أجل تفجير قارورة الغاز في وجه كلِّ من تسوِّل له نفسه الاقتراب من عُشِّــها الصَّغير، لم تعلم بأنَّ الانفجار سيقضي عليهــا أوَّلًا ولكــن وإن علمت لم يكن الأمر ليُحــدث فرقًا عندها، فهذه الجبَّارة تجيد فنَّ الهــدوء والصَّبر عكس صغيرتها التي لا تعرف الوسطيَّة إلى أعصابها طريقًا..

.. خالتي هجيرة الجبَّارة لا تصبر لأنَّ الصَّبر واجب ولكن لأنَّ الصَّبر هــو الصِّفة الوحيدة التي تحتاجها كلَّما أوشــكت على فقدان الأمل.. وهي كادت تفقد كل آمالها..

ماذا تفعل أمِّي هنا؟ هذا أوَّل ما خطر للصَّغيرة حينها، أمُّها في البرد الشَّــديد تحمل عصًا بيد وقدَّاحة بالأخرى، وتســير ذهابًا وإيابًا على حافتَيْ سطح المنزل الافتراضيِّ المخيف، وهناك بالقرب من الكرسيِّ الخشــبيِّ القديم آخر قارورة غازٍ في المنزل، رغــم غرابة المنظر إلَّا أنَّ خوف الصَّغيرة تلاشى فاللِّصُّ الذي خافتا منه ليس إلَّا أمَّها:

– أمِّي! ماذا..

– آه! بسم الله، أرعبتني يا فتاة ماذا تفعلين هنا؟

– قــولي لي أنت أمِّي! ماذا تفعلين هنا في «البرد والظَّلام»؟ لقد خافت أحلام وظنَّتك لصًّا.

– أنت من أخافني لقد تأكدت مــن نومكما لماذا أنت هنا؟ عودي إلى فراشك.

– الظَّلام شــديدٌ، أنا لا أرى جيِّدا ولكن هل هذا معطف أبي القديم؟ أمِّي! لماذا تلبسينه إنَّه بشعٌ جدًّا؟ ولماذا تركت فراشك؟ هيا لتنامي معنا.

– آه.. أنا أنظر فقط لأنَّني سمعت صوتًا غريبًا فظننت بأنَّه كلبٌ يريد أكل الدَّجاجات، عودي وسـأحق بك حـالًا لا تخافي يا حلوتي، اعتني بأختك جيِّدا أنا أعتمد عليك.

حتى بعد الهروب الكبير لم تنس الصغيرة ملمس يد أمها حين تريدها أن تكـون صغيرة عظيمة.. هذا هو الفرق بين عمار وزوجته هي ترى ابنتها صغيرة عظيمة وهو يراها صغيرة كبيرة..

.. أكملـت الأمُّ نوبة حراسـتها وأكملت طفلتاهـا نومهما الهانئ البريء..

عند الفجر عاد عمي عمار منهكًا متعبًا متَّسخًا غاضبًا، وكانت خالتي هجيرة ورغم ما تعانيه من ذلٍّ وتعب وجوع؛ رغم ما تحمله من أعباء حياتيَّة ثقيلة.. رغم خوفها على بنتيها من هذا الوضع الرهيب.. رغم ألمهـا لرؤيتهما جائعتـين.. رغم أنَّها ترتعب لفكـرة أن تفقدها بنتيها فتتقاذفهما رياح الأيام كأجمل ريشـتين في هذا الكون ويبعثر والدهما طفولتهما.. رغـم كل شيء كانت تخاف من زوجهـا أكثر، لهذا فهي وعندما رأته قادما نحو الباب نزلت من فوق السـطح سريعًا مرتجفة من البرد والغضب ولكنَّها لم تُبدِ ذلك وكلّ ما أمكنها فعله:

– صباح الخير، أدخل بسرعة فالبرد شديد.

– بسرعة أحضري لي منشفة.

كان المطر غزيرًا في ســاعات الصباح الأولى.. دخل وجفف نفســه دون أدنى كلمة مع زوجته.. المرأة الجبارة..

وفيما يبدو كان قلقا منزعجًا من أمر ما، يحتضن كيسا مبتلا.

بدأ الشك يدخل قلب عمي عمار من هذا الحزب، فهو في البداية كان فقط يشجع تجمعا إســلاميًّا يعد بالخير والمساواة -ليس بين الرجال والنساء طبعًا- والقضاء على الفساد والمحاباة، ولكنَّه وجد نفسه يسير في مســيرات حاشــدة منذِّدة بالنظام وفارّ من كلّ شرطيّ يراه أمامه، وهذا ما كان يقلقه ويدغدغ رجولته كثيرًا، فهو وكما عرف نفسه دائمًا رجل شجاع باســل صريح واضح جدًّا لا يحبُّ الظلم ولا يخاف من أحد، ولكنه وجد نفسه فجأة رجلًا آخر يخاف أن يضع نقوده كما يفعل غالبا تحت ثيابه المطويَّة في الخزانة.

عندما عاد عمي عمار ذلك الصباح يحمل كيسًا مليئًا بنقود مبتلة كان قد خبأها في حفرة خارج البيت حتى لا تُأخذ منه بالقوة من أيّ جهة كانت، ففوضى الفوضى الخاسرة بالفطرة لدينا جعلت الأمر قاســيًا على الجميع وكلُّ من امتلك سلاحًا أبيض تجرأ به على زملاء الذلِّ من شعب منهك واستولى بواسطته على ما تبقى لديهم.

وقد حدث أنْ تسرَّبت مياه الأمطار إلى الكيس فبلَّلته وكادت تُتلف محتوياته.

– أشعلي النار دعينا نجفِّف هذه الأوراق، أين الفتاتان؟ ما هذا البرد؟

– لم تستيقظا بعد، هل دخل الماء إليها مجدَّدًا.. تشعل الموقد.. أين كنت كل هذا الوقت كيف تتركنا لقدرنا؟

– ما دخلك أنت في أموري؟

– ألا تعلم أنَّ لك عائلة صغيرة تحتاجك ماذا تقول يا رجل؟

أغضبته زوجته إذ رمت ما رمت بوجهه فجأة فردّ مبرِّرًا بنبرة مغايرة:

– نحن في زمن الوحشـيَّة، الأقوياء يسـتبدون فيه بوحشـيَّة وليس لهم حقّ فكيف لا نتوحّش نحن ولنـا حقٌّ وحقّ.. إنَّ الجزائر كلُّها تحتاجني..

– أنا لم أذكر الوحشـيَّة فكيف فهمت بأنَّني أحدِّثك عنها؟ ثم أيُّ حقّ هذا الذي لديك؟ وأيُّ جزائر هذه التي تحتاجك؟ إنَّهم يستغلونك، انتبـه لبناتك فهل تضمـن أن تعيدهما لك وحشـيَّتك إنْ أخذتهما وحشيَّتهم؟

– كيف تكلِّمينني بهذه الطريقة منذ متى أصبح لديك فم للكلام؟

– منذ أنجبت بنتيك من بطني وأنجبتكَ من صدري، أنا أموت خوفًا عليك وعلى هاتين الصغيرتين، هل سنعيش هكذا أبدًا.. لقد تعبت.

– هذا ما أقصده إنْ أنا لم أفعل ما أفعله فسيطال الموت كلَّ شيءٍ جميلٍ حولنا.

– إنَّها حرب مستعرة نارها بين طرفين وأنت تجعلنا ثالثهما.. دعهم يقتلون بعضهم ما شأنك أنت؟ فلتهتم بعائلتك..

– وما أدراك أنت بمن يقتل من؟ أنت هنا لا دراية لك بشيء.

– لا يهمني من يقتل من ولا من يُحيي من؟ كل ما يهمني هو براءة بناتي.. قوّتي.. شجاعتك.. حبنا للحياة.. لماذا تريد إدخالنا في هذه المتاهة؟

أطرق قليلًا قبل أنْ يسقط بيده ثم أجاب والإعياء يفتك به:

– سأحاول أن أبقى معكن أكثر لأحميكن.

كان صعبًا عليه أنْ يعترف بذلك فكرامته لا تسمح له.. وقد ورثت عنه صغيرته كل هذا..

هو لا يتوقَّع بأنَّه سيخسر زوجته إنْ هو استمر لأنَّه منهك حدَّ الجنون من إغداق حبها ويظنُّ دائمًا بأنَّ ذكورته أحسن منها.. دائمًا.. والأدنى يخسر الأعلى دائمًا..

.. ذكر.. ماذا نتوقع؟

ولكن بينه وبين نفسه هو كان يعلم جيِّدًا بأنَّ لا فائدة ترجى مما يفعل.

..هي الحرب إذن.. توالت الضربات الموجعة للشعب الذي لم يدرك بأنَّه يتلقى في أحضانــه كرة من الجمر كان عليه حملها لعقد من الزمن ويزيد، لا يستطيع القيام بأعبائها ولا يريد الاحتفاظ بها.. وكان الثمن غاليًا جدًّا.

لا أدري لماذا أذكر العقيد الشــهيد «زيغود يوســف» حين قرأت أنه قال:« إنَّ هذا الشــعب عظيــم وعظيم جدًّا لذا ينبغــي أنْ نَكون في مستوى هذه العظمة وإلّا كانت الكارثة العظمى».

– دخل الماء إليها مجدَّدًا أرجو ألَّا تكون قد اهترأت؟

– جفّفيها معي قبل استيقاظ البنات.

غالبًــا لم يكن لدى أحلام رغبة في النوم، وعندما ســمعت همســات والديها جلست بكلّها على جسد أختها النائم:

– أختي! استيقظي.. أنظري من يجلس مع أمي، إنَّه أبي، لقد عاد.

بعينين صغيرتين مبتســمتين شــبه مغمضتين ركضت بمجرَّد سماع كلمة « أبي عاد» :

– أبي..! أبي! لقد عدت، أين كنت؟ اشتقت إليك.

يحتضنها ببرود شتائيٍّ جزائريٍّ أحمر:

– كنت في عمل خارج المدينة، وأنت يا أحلام! ألن تسلمي عليّ؟

– تقدَّمي يا أحلام! سلِّمي على أبيك.

وقفت أحلام أمام فتحة باب الغرفة تنظر إلى أبيها وفقط، لم تشعر برغبة في الركض إليه كما فعلت أختها فهي لم تكن تحبه جدًّا، لنقل بأنَّها متعلقة بأمها أكثر.

.. أحلام.. هي تقريبًا خالية المشاعر، لم تكن بذلك الحب للحياة عكس أختها تمامًا، لا تريد شيئًا على وجه التحديد، فقط هي تستسلم للعيش.

الفرق الغريب بين الأختين يطرح تساؤلًا عجيبا أجاب عليه «مالك حداد» قائلًا: « يجب النظر بعين الاعتبار إلى البلابل الصداحة والنظر بعين الاعتبار إلى البلابل التي تكفُّ عن الغناء فإنَّ هذه وتلك حالتان تعيستان من كافَّة الوجوه».

– أبي! لقد تعطَّل التلفاز عندما ذهبت لعملك نحن لم نشاهد الرسوم المتحركة منذ أسبوع فأحلام كسر... آه لمن هذه النقود هل هي لنا؟!

ارتبكت خالتي هجيرة ولم تدر ما تقول بل رمت بأيِّ شيء خطر لها:

– كلَّا.. كلَّا.. إنّها.. إنَّها.. إنَّها لجدتك خبأتها عندنا وقد ابتلت بماء المطر فقد دخلت «الحَمْلَة» ليلة أمس وأبوك يريد أن يعيدها إليها

اليـــوم، إياك أن تقولي هذا أمام أحد إياك أن تخبري دنيا أو معلمتك لا تخبري أحدًا.. لا أحد.. أهذا واضح؟

ينهرها عمي عمار عابسًا:

- إنْ علمتُ بأنَّك قلت شيئًا من هذا سأضربك.

- أعدكما بأنَّني لن أقول شيئًا، هل أجفِّف معكما؟

- ولكن احذري إحراقها.

الصَّغيرة صغيرة صغيرة.. جلســت تجفِّف نقود والدها بحب كبير تقلِّب الأوراق حتى موعد الغداء فقامت خالتي هجيرة تحضّره.

- أبي! ماذا ســتفعل جدتي بهذه النقود؟ هل ستشتري بها دواءً لجرح مؤخرتها؟

- أيّ دواء؟ ما بها جدتك؟ هيا قولي.

خافت وعــادت إلى الخلف ولم تتكلم فالواضح أنَّها لا تعلم شــيئًا سوى أن جدتها مجروحة.

اضطرب عمي عــمار في مكانه وزمجر أو كما يظنُّ بأنَّه يفعل: يا مرا.. يا مرا..

عندما وصلت إليه بادرها بالسُّؤال:

– ما بها أمِّي؟ ما بها مؤخرتها؟

لم تنطق خيفة فصرخ مرّة أخرى:

– قلت لك أيُّ جرح تتكلّم عنه الفتاة؟ ما هذا الكلام؟ مالذي تقوله؟ أهدري يا مرا.

اتخذت الصغيرة لنفسها مكانا جانبا، سمَّرها خوفها مكانها فهي على ما يبدو فعلت شيئًا خاطئًا أغضب والدها.

– عندما غبت عنا في الأسبوع الفائت خافت أمك عليك كثيرًا وأصابتها الحمَّى لكثرة بكائها وانشغالها بأخبارك، خاصة عندما سمعت عن اختفاء أبناء جيرانكم في الحي وعن القصص المروّعة لما حصل لجثثهم عند العثور عليها..

– إييه وما دخل كل هذا بجرح مؤخرتها؟

– لقد اشتدّت عليها الحمى.. و... ومرضت كثيرا... و..

توقفت عن الحديث لأنَّها رأت هول ما كانت تقول مرتسما على وجه زوجها، فأرادت أن ترحمه من ذُلِّ الاستماع لقصصٍ مؤلمةٍ لم يكن حاضرًا ليخفف ألمها على أعزّ الناس إليه وحسب، بل وكان سببها المباشر أيضًا..

ولكنَّه نظر إليها قويّا كما هو دائما، وسألها بطريقته المألوفة في التحدث بشـــكل هادئ مختصر ولاذع في آن يرفق كل هـــذا بنظرات الاحتقار ليبث فيك ذلك الشعور المألوف:

– ماذا حصل لها؟

– أصيبت بنزيف داخلي إنَّها.. إنَّها تنفث دمًا من كل مخارج جســـدها الضعيف.

حطَّم هـــذا الخبر كل ما بقي شـــامخًا لدى عمي عـــمار.. نكَّس مدَّة وأخرج مجموعة حروف بصعوبة سائلًا زوجته:

– لماذا لم تخبريني عندما عدت ذلك اليوم؟

– ولكنَّك عدت لربع ساعة فقط ثم غادرتنا وها نحن نكمل أسبوعًا آخر في غيابك، فكيف سأخبرك وأين سأجدك وكيف أتصل بك؟ ماذا أفعل أخبرني؟

– أين حذائي هل جفّ؟ سأقصد الحيّ الشعبيّ لأزورها.

– أين تذهب؟ لقد أخذها أخوك إلى بيته، المنزل فارغ.

– وعمَّتي وابنها؟

– أخذهما عمُّنا إلى بيته الريفيّ أنت تعلم أن عمَّتنا تعاني من الربو ولا يمكننا إحضارها إلى منزلنا فهو بارد ونديّ جدًّا.

سَـــمَّرَه انتماءه الحزبيُّ مكانه فهو لم يتوقّع كل هذا، الآن أدرك فداحة خطئه.. كل ما تذكَّره في هذه اللحظة هو نصيحة صديقه عمي رشيد:

- يا صاحبي! دع السياســة للسياســيّين فلن يأتيــك منها إلا وجع الرأس، ثم ما أدراك أنت بأنَّ هذا الحزب ســيحقّق لنا الرفاه؟ متى سمعتَ عن حزب معارض استولى على مقود السياسة فحقَّق رفاهًا ديمقراطيًّــا؟ أنتَ حصــاة في جبال مخطَّطاتهم، أنــتَ بنظرهم جُثَّة مستقبليّة لفدائيّ غبيّ أو قلب ميت لـ «مجاهد» قاتل..

- لن أخسر شيئًا إن متّ فسوف أكون شهيدًا.

- شهيدًا..!! هذا إن وجدت من يسمِّيك هكذا يومًا.

- قل ما شئت فأنا لا أخاف الموت.

- لماذا يــصرُّ كل الناس على ذكــر الموت لمــاذا؟ إنَّ الله خلقنا لنعمر الأرض لا لنخربها ثم نتمنى الموت لنكون شهداء..

- أنا أحارب الظلم على هذه الأرض.

- ولكــن من الذي ظلمكَ؟ ما بكَ يا رجــل! إنَّهم يتلاعبون بك ألا تعي ذلك! لقد عرفتك رجلا مؤمنا يا عمار! ألم تسمع كلام ابن مريم حين قال: « من ثمارهم تعرفونهم إنَّك لا تجني من الشوك العنب».. ولا يبدو بأنّ هناك بذورًا للسلام.

وتذكــر كلام كل من حولــه.. أبي..! أبي! أين كنت اشــتقت إليك كثيرًا.. يا راجل! أين كنت؟ كيف تتركنا أنا وبناتُك وحدنا طوال هذه الفترة..؟ الخطاب الفكريّ العقائديّ.. يا بني! لا تذهب ألم تسمع بما حدث لابن جيراننا.. عمار يا بني! ابق معي لا تقتلني بحسرتي عليك.. الخطاب الجهاديّ الملتهب.. خوية عمار! ســمعت بأنَّك انضممت إلى الحزب الجديد هل جننت؟ لماذا تقحم نفســك في لعبةٍ لا أحد يعرف مخترعها ولا أحجار الدومينو فيها؟ ارحم والدتنا من هذا العذاب..

تشــتَّت الرجل بين لا وأجل، فهو من جهــة لديه عائلته التي يخاف عليهــا.. ربما!!! ومن جهة أخرى لديه حزبه الذي وعد الناس بالخير المطلــق وألغيت نتائج انتخاباتــه، فهل يترك عائلتــه لمصيرها؟ هل يحارب من أجل حزب؟؟ هل يواجه عاقبة أفعاله بالنضال ضدَّ نظام ديمقراطــيّ «جائر»؟ هل هو مســتعد أن يقدم كل هذه التضحيات؟ ماذا لو لن تصل الحرب إلى نهايتها؟ ماذا لو انتصر النظام؟

***

عند الظهيرة بدأت الشـــوارع تخفُّ بوفودها فرغم أنَّ المباراة ستبث على الســـاعة السادســـة مســـاءً إلا أنَّ الجميع فضَّل أن يكون حاضرًا ســـاعات قبل الانطلاق، لم لا والقنوات المصريَّة تقوم بالواجب على أكمل وجه وتوفِّـــر للمواطِنَين الجزائريّ والمصريّ أجود وأكبر تغطية إعلاميَّة حظيت بها مباراة كرة قدم.. من على جبهة واحدة..

عندما أدرك نبيل بأنَّ الناس لم يعد لديهم وقت لحلوياته، سمح للعمال بالانصراف خاصة البنات فالطريق سوف لن تكون سالكة مساءً لأنَّ لا حافلة ولا سيارة ستعمل بعد الواحدة زوالًا، وهو عرف قسنطينيّ معمول به أيام المباريات الهامَّـــة.. ومباراة اليوم هي أهمّ مباراة مرَّت على تاريخ الجزائر..

انصرفت العامـــلات وكانت الصغيرة أوّلهن فعمـــي عمار الرافض لفكرة عملها سيقتلها لو تأخّرت.

ســـارعت إلى المحطَّـــة وفرصة العثور على حافلة أخـــيرة هي كلّ ما يهمُّها.. المباراة توشك أن تندلع وعليها أن تكون جاهزة بكامل العدّة قبل الانطلاق.

انتظرت ظهورًا لحافلة ما.. عربة ربما.. إنسان سبق وأن لاقتها الحياة به يومًا... انتظرت هناك لســـاعتين، لا رصيـــد بالهاتف، لا نقود، لا

سيارة، لا دكان هاتف عمومي، لا إنسان، لا عصفور.. لا شيء تمامًا، عادةً يتواجد لصوص في هكذا ظروف، ولكن اليوم.. لا شيء تمامًا.

الشعب كله منصرف عن أمور السياسة والحكم لأمر أهم، الشوارع خالية والهدوء مخيّم على كافة التراب الوطنيّ.. يا له من منظر مهيب.. حتى لو كان الأمر ليوم واحد فقد نجحت سياسة إبعاد السياسة عن الشعب..

المكان موحش وهدوء ما قبل العاصفة يطحن عظام الصمت الرهيب ويكسوه بنوع آخر من الخوف.. الحياة..

مرّت لحظات عندما بدأ يطاردها خوفها الدفين ولكنَّها تظاهرت بأنَّها لا تسمع وقع أقدامه خلفها، جاهدت أنْ تتشجَّع لتقوى أن تكون في مستوى محاولة العودة، فأكبرت الوقوف بضع نظرات، والجلوس بضع حسرات، ثم أخيرًا حاولت المشي بضع خطوات، ولكن لا شيء من ذلك مجد فعادتها القديمة اليوم... أقوى من كلّ المحاولات..

تأكَّد لديها بأنَّها لن تستطيع العودة إلى البيت، واستهلكها ذاك الشعور.. الخدر المشؤوم يسير بها إلى قدرها والخوف الحزين لم يفارقها وخطواتها اللعينة إلى الوراء تُفقدها ما بقي لديها من رغبة في العيش.. لم تملك سيطرة على نفسها..

أيّ شـــبه لها الآن وهي تجر أســـمالها المبللة عارًا وإثمًا يحاك ليس فقط في صدرها بل على طول ساقيها المشـــدودتين بأوتار الماضي العتيق.. المـــاضي اللعين الذي يفرض علينا عناء أَلَمِ أيَّامـــه مرارًا وتكرارًا رغم أنَّ نظـــام الكون لا يتيح ذلك ولكن «للماضي جميع الحقوق فهو يرجع دائمًا تارة بخطى وئيدة وتارة أخرى بشراســـة فيفرض نفسه ويفرض قانونه» يقول «مالك حداد».

ليس لديها ما تخسره الآن، ما كانت تخشـــاه قد حدث فالماضي يملك دائمًا حقَّ تكرار نفسه.

آن لها أن تقرِّر العودة سيرًا، وطريق العودة محفوف بالهواجس، ملغّم بمخاوفها الدفينة مليءٌ بالحسرة على عمرٍ مضى دون أن يكون محسوبًا لها بل عليها.

كلَّما جلســـت إلى نفســـها تمنّت لو أنَّها ترحل بعيدًا.. بعيدًا حيث لا يعرف مكانها أحد، أرادت أن ترحل عن ذلك المكان فقد راق لأحبابها أنْ يتَّخذوه ملعبًا، أن لا تراهم، لا تسمع عنهم شيئًا، أن تنسى أمرهم إلى الأبد، ولا يبقى في ذاكرتها خيال من أحدهم، ليس لأنَّها تكرههم بل لأنَّهم يذكرونها بأيام لا تريد تذكُّرها مطلقًا..

سارت الصغيرة في طريقها.. يا ذلك الطريق المظلم الذي كلَّما أظلم عليها مشـــت فيه، منذ صغرها وهي صغـــيرة.. منذ صغرها مازالت صغيرة، وهذا الطريق ما فتئ ينتهي..

- اركبي سأوصلكِ!

..أنا أعرف هــذا الصوت يا إلهي! لقد ســمعته البارحة بقلبي، إنَّه رَجُــلي من بين كلّ الرجــال.. أهذا صوته حقًّا.. هــو.. إنَّه محفورٌ في مخيّلتي منذ خلق الخلق، نعم هذا صوته.. إنَّه منقذي..

توقفت سيَّارة، فركبت إلى جانب صاحبها وكأنَّها فعلت ذلك دائمًا، ســلَّم عليها وكأنَّه يعرفها منذ أبد، لاحظ بللها ولكنه لم يسألها وكأنَّه يدري حتمًا، أخفت وجهها بين أناملها وبكت في حضرته وكأنَّها تحبه منذ أزل..

لم يتســن لها الهروب مطلقًا.. دنــا منها ثابتا وكأنَّه يعــرف بأنَّها لن تبتعد.. وحتى إن أرادت لم يكن بإمكانهــا.. احتواها بفنِّه الطاغي.. يديه ربما؟!.. كغزالٍ ضعيــفٍ جاهدت للهروب ولم تقوَ، بين ذراعيه عاشت دهرًا لا تفعل شيئًا سوى الارتجاف.. لم يستغرب ولم يتحدَّث.. لم يحرِّك ســاكنًا، هدوؤه هدّأها، صوت أنفاسه طمأنها، رائحة جسده استنفذت كلّ ثوراتها... رجلٌ حيّ أمامها، كدهشتها لرؤية ديناصور منقرض اندهشــت من قوّته الآسرة الذاهبــة في رجولتها إلى أقصى حدود الهوى، يداه اللتان تطوقانها لم تتحركا، لم يقل شــيئًا.. بلى فعل! قال: أحبك..

.. هامسًا..

مدفوعةً بكل ما أوتيــت من فضول تركت حياتهــا جانبًا وراحت تتأمَّل انتشــاره في دمها، إنَّها عروقها من تغنِّي احتفاءً به، إنّه قلبها من يزفُّها لسعادتها، إنّها من تحب رجلًا للمرة الأولى في حياتها..

– أنا أحب رجلًا ليس للمرة الأخيرة بل للمرة الكبيرة يا أيَّتُها السماء..

دنت من حلمها الجميل متردِّدة الأنفاس، اقترابها منه ألهمه وشجعه.. ربما.. لم يقل أحبك بشفتيه بل بكلّه.. كعادة كل الشعوب النامية عندما تشارف على تحقيق انتصاراتها.. هربت إلى الخلف؟!

لم تُصدِّق كيف لبشريّ أن يكون على هذا القدر من التناقض فيجبن عن قول أحبك بأعلى صوته.. ثم يكون عظيما في شــجاعته ليلامس حبه بكلِّه دون أن يستأذن حتى!!

– حلمي الزاهي الألوان أمامي.. عليّ أن أحصل عليه الآن أو أبداً... خاطب نفسه حتمًا.

نفس الحديث إلى النفس ذلك الذي اشتركا فيه.. وخرج هو بنتيجته بينما خرجت بها نتيجتها:

– لقد تأخرت كثيرًا عليّ الذهاب، ما كان يجب أن نأتي إلى هذا المكان أنا لا أعرفك حتى.

– ولكن قلبك فعل.

- وهل فعل قلبك؟؟؟

الخامسة بتوقيت 18 نوفمبر 2009 كل الشاشات تصوّر مدرّجات القلعة الحمراء والعيون ترقــب، وكل القلوب تدعو إلى الله، في ذلك اليوم سُــجِّلت أكبر نســبة صلاة نافلة في تاريخ الجزائر فأذكى ما قد يفكّر به كلّ شــخص ساعة قبل أن يدوي بوق الحرب.. عفوا قبل أن تنطلق المباراة هو صلاة يدعو فيها للمنتخب الوطني بالفوز.

كم تمسَّــك الناس بهذا الفــوز مِلأ ما يتّســع له تفكيرهــم، كانوا متمسّــكين بتأهّل الفريق الوطنيّ أكثر من تمسّــكهم بلقمة عيشهم، فجــأة اختُصِر العالم كلّه في مباراة لكــرة القدم، وأضحت كل آمالهم متأرجحة باستجابة السماء لصلواتهم علّهم يستعيدون ذاكرتهم جرّاء ضربة لهدف فيتذكَّرون يومًا.. كيف يضحكون..

استحضرنا يومها فوائد الصيام الجماعيّ فصمنا يوما واحدا وأفطرنا وقتا واحــدا ودعاؤنا كان دعاءً واحدا وكُلّنــا صوت واحد: «اللَّهم انصر عبيدك فإنَّهم مظلومون.. اللَّهــم لا تردهم خائبين مهزومين.. اللَّهــم إنَّا نرجوك ألَّا تُضيّع دمائهم المهدورة غدرًا في القاهرة.. اللَّهم وعدك الذي وعدت أنْ تنصر المظلوم ولو بعد حين..»

افترقنا بديننا ذات يوم وجمعتنا كرة.. ألا يكفينا هذا عارًا؟

.. دخلت الصغيرة متســلِّلة، خجلة من ثيابها، مصطكَّة أســنانها، متمايلة الخطى، الجميــع منذهل أمام الوليمة الدســمة التي تقدمها

المباراة فلـــم ينتبه أحد لدخولها.. إلا عمي عـــمار الذي نخرها بنظرة الاحتقار المعتادة استعدادًا منه لإهانتها فور دخولها حين قام من مكانه غاضبا، قبـــل أن تقع نظراته على بللها المزمن ألمًـــا فتراجع إلى مباراته الأهم وتظاهر بمد يده إلى جهاز التحكم وتجاهل دخولها لأنَّه لا يريد أن يفســـد يومه بســـؤالها عن عارها المبلَّل حزنًا فهو لا يحب أمرا آخر بقدر حبه للمنتخب، وهذا آخر ما كان يعنيها بعد يوم كهذا..

توجَّهت إلى غرفتها الافتراضيَّة فدخلتها وجلست على أقرب مقعد من فتحة الباب تتأمَّل نفســـها في هذه اللحظـــات النادرة الأكثر، فلم يكن هناك من هو أكثر حزنًا منها ولا من هو أكثر ســـعادة في اللحظة ذاتها، وهذا نادرٌ حتمًا.

فكَّرت قليلًا قبل أن تغيِّر ملابســـها ثم قامت وأســـندت ظهرها إلى الجـــدار الافـــتراضيّ ووقفت أمام المـــرآة تنظر إلى بقايـــا ذلك الزمن بداخلهـــا بل بقاياه عـــلى وجهها، كانت تعتصر عينيها دموع ســـخيَّة أبت أن تخرجها تكبرا وخيلاء، وقفت زمنًا أمام المرآة المكســـورة التي وجدتهـــا مرميَّة على طريق العودة إلى بيتهـــم، ولأنَّ لا مرآة لديها فقد ألصقت حوافَّها بضمَّادة للجروح، وعلَّقتها في نافذتها بواســـطة خيطٍ مطاطيّ وجدَتْه في أحد الأدراج.. وهكذا أصبح لديها مرآة تنظر إليها كل صباح وتحاول أمامها أن تجمِّل نفسها خلسة، فالنظر إلى المرآة علنًا هو سوء تربية وعدم احترام حسب القانون الداخليّ لعمي عمار.

كانت تحــاول أن تبدو جميلة ما اســتطاعت لأنّ جمالها لم يكن بذلك الجمال، أو كما يقول والدها دائمًا: أنت قرد ممسوخ.. لا أحد كان يعلم بذلك إلى أن قالها ذات نوبة روتينيّة..!

لعلَّهــا في محاولتها أن تتجمَّل كانت تريــد أن تقول له: بلى أنا جميلة، لستُ قردًا! لم أكن كذلك يومًا..

ضربت جذورها أمام المرآة وراحت بفكرها الصغير النائم إلى رجلٍ أحبته حبًّا أعمى؛ فقط لأنه ناداها أنثاي الجميلة..

تملك هذه الأنثى أجمل شــعر في العالم، بنيّ لامع أملس حريريّ، هو أجمل ما فيهــا، بشرتها البيضاء النقيَّة أنهكها مرض ناتج عن سياســة الأرض المغلولة المتّبعة في المنزل الإفتراضيّ الكبير..

صغيرةٌ هي أكبر إخوتها.. لها عينــان براقتان عندما ترمقك بنظرتها لا تــترك فيك أيّ أثر قبيح كما يقول عمي عــمار، رغم أن آثار الزمن بادية على وجهها وعلى قلبها الأبيض الصغير المتأثر بعصبيَّتها.. ولكنه أبيض جدًّا.. إلى درجة لا تســمح لها بالعيش مع كلّ هذه الحيوانات المنتحلة لشــخصيَّات بشريَّة.. حيوانات كلُّها شرسة، رغم أنَّ الغابة الحقيقيَّة تحمل تنوّعًا حيوانيًّا طبيعيًّا رائعًا، ولكن غابة بني آدم تحتوي على نوع واحدٍ من الحيوانات.. نوع شرِّيرٌ بالاكتساب أنانيٌّ بالفطرة.. البشر..

- متى تظهر نتائج البكالوريا؟

- أظنُّها لن تتأخّر أكثر، ما رأيك دنيا أتظنِّيني سأنجح؟

- اطمئنّـــي عزيزتي أنا متأكِّدة من قدرتك عـــلى النجاح.. لولا إهدار عمي عمار لســـنواتٍ من عمرك بحجّة الدِين في البداية، ثم بسبب غيابه القاهر لكنت معي الآن في الجامعة..

- أجل ولكن دائمًا ما تجري الرياح بما لا تشتهي السفن.

- فعلًا ورياح الماضي كانت أقوى من الجميع.

- المهمُّ أنَّني أتماثل الآن للشفاء.

لم تملك يومًا معطفًا يقيها برد الشـــتاء.. بلى كان لديها واحد اخترعه عمي عمار دون أن يســـأل رأيها، معطف رجاليّ خشـــن واســـع كبير ليحتوي جســـدها الهزيل.. ولم تملك الخيار فارتدته حتى لا تموت من الـــبرد.. ارتدته حتى لا يقتلها رعبها مـــن الإحتياج.. ارتدته حتى لا يشلّها إحساسها بعدم الأمان..

أيامها نزل وزنها كثيرًا، كانت تذهب وتعود سيرًا على الأقدام وحين تتأخَّر يتمُّ توبيخها.. طالبت مرَّة بالنقود لكي تســـتقل الحافلة وتعود مبكـــرًا، طلبت من الإمبراطور.. كان ذلك أيام مجده.. فلم تحصل إلَّا على القليل لمدَّة يومٍ واحدٍ؛ يومٌ واحدٌ من بين ألف يومٍ قضتها الصغيرة في الثانويَّة.

نجحت وكان هذا أكبر إنجاز لها في حياتها، لم يهنِّئها أحد سوى أحلام ودنيا وأهمل الجميع معدَّلها الجيِّد الذي جاهدت للحصول عليه، لأنَّ نجاح هذه الفتاة ليس من أولويات العائلة حتى لا نقول بأنَّه لا يعني شـــيئًا، نُبِذت لأنَّها نجحت والنجاح هو جريمة في حقِّ غرور الآخر فليس هنالك ما هو أكثر ألمًا من رؤية الإنسان لإنسان ينجح..

عندما تنجح ولا أحد إلى جانبك يقاســـمك فرحتك تكون هذه هي أعلى درجات الوحدة وأدنى درجات الحياة..

حين فتحت الجامعة أبوابها وبدأت الدراســـة تغيَّر حال كلّ الطلَّاب مـــا عداها كأنّ لا شيء تغيَّر، فقط غيَّرت الفتـــاة وجهتها قصد الحرم الجامعي لا أكثر ولا أقل..

إحساسها بعدم الأمان الدَّائم يجعلها تحيط نفسها بأمور تافهة، فلابد أن تكتب بقلم وفي المقلمـــة قلم جديد إن انتهى القلم الذي تكتب به تشتري آخر بخوف سريع، وهي تغسل بقطعة صابون وقطعة أخرى جديـــدة في الدرج وإن انتهت القطعة التي تغســـل بها تسرع إلى شراء قطعة أخرى بخوف.. خوفها مـــن الإحتياج صار مذهبًا ورعبها من الفقدان تحوّل أسلوب حياة..

ولو اســـتطاعت أن تخبّئ ســـليم آخر في الخزانة لفعلت.. سليم آخر وليس رجـــلًا آخر.. لأنَّ ســـليم لا يملأ خوف فقدانه إلَّا ســـليم.. بالنهاية ألسنا نفقد فقط ما نخشى فقدانه..!

الخوف مـــن الفقدان ســـاعد رغبتهـــا العميقة في العمـــل ومحاولة الحصول على المـــال، فعملت في الصيف أثناء العطلة في أعمال العجن والخبـــز وأعمال الطرز والخياطة وكان ما تحصـــل عليه من أجرٍ زهيدٍ جـــدًّا يعينها على بعض مصاريفها ومصاريـــف أحلام، ثم عملت في التجميل وغســـل شـــعور الســـيِّدات الغنيَّات النظيفات الشبعانات الجميلات بقدر جمال جيوبهن المنتفخة، ثم في تقشير البندق، ثم في بيع الثياب المستعملة حتى انتهى بها المطاف في محلّ نبيل للحلويات؛ تكاد لا توجد مهنة لم تعملها وكأنّها أرملةٌ تستجدي.

الآن وقد امتلأت المقاعد الصفراء مناصفةً بين مشـــجعي الفريقين فقد آن للأمر أن ينتهي، لم تبق إلّا دقائق عشر ليطربنا الحكم السيشيليّ بصفَّارته، الجميع منهكوا الأعصاب بدت الســـاعة السادســـة نهاية الدهر.

عشنا مساء 18 نوفمبر 2009 مساء مفخَّخا مليئًا بالأسئلة الخاطئة المصحَّحة: ما رأيك هل سنتأهل؟؟ ويردُّ جارك بسذاجته على غبائك: بل ماذا ســـنفعل بعد أن نتأهل؟؟.. هو ذا السؤال الصحيح، وأمامك بعدها ســـاعة حافلة لتصحيح أســـئلة الجيران والأصدقاء والزملاء والأغبياء والســـذج والوطنيين.. فجـــأة! وكلّ جزائريّ مازال عقله صالحًا للاستعمال ذلك اليوم.

قسنا ذلك النوفمبر وطنيّة دواخلنا بمقدار أسئلتنا المصحَّحة.

لم يفكـــر أحد يومها في بعد المباراة، لم يتســـاءل أحـــد ماذا نفعل بعد المبـــاراة؟ توقّفت أدمغتنا عـــن العمل وكأنّنا ســـنعيش هذا اللقاء ثم كفى.. ثم الموت، سنموت جميعا..

خرجت بعد أن غيّرت ملابســـها متجاهلة ألمها، فلهذه المباراة قدرة عجيبة على تحييد الألم، وجاورت أحلام دون أن يعير أيُّ أحد أيَّ أحد أيَّ اهتمام.

لأشـــهر أدمنَّا على المباراة وعلى صورة الشـــيخ «ســـعدان» وصوته الأبويّ الجاثم تحـــت أقدامنا خوفًا من ثورتنا عليـــه تلبية منَّا لنزعتنا الانتقاميّة مـــن كلّ ما هو جميل حولنا، وأدمنّا هتافنا باســـمه «جيش شعب معاك يا ســـعدان وجايّين للســـودان» أمّا وعندما أعلن المارد السياسيّ هنا بأنّ الخطوط الجويّة مع الخرطوم السودانيّة مفتوحة لكل مناصري «الخضرة» فقد تحول الهتاف إلى « بوتفليقة تاعنا تاعنا».

« كرة في الوسط من «حســـان يبدة» يوصلها مباشرة «لمغني» ترجع لـ «كريم زياني» يرفعها من هناك هايلة من «كريم زياني» صعبة هايلة ممتازة.. أجمل هدف في العالم» في الدقيقة 40، توقف الزمن ذلك اليوم عند الدقيقة 40 بعد الساعة السادسة مساءً.

والله وبـــالله وتالله لم نفرح يومًا كما فرحنـــا ذلك اليوم، قال لنا كبارنا الذين عاشـــوا ماضينا الكبير بأنّهم لم يروا الشـــعب ســـعيدًا إلى هذه الدرجة من قبل إلا يوم الاستقلال.

فضَّل عمي عمار أن يفرح رفقة نفسه في بيته جالسا على كرسيه؛ بينما تدفّق الناس إلى شوارع كانت مأواهم الوحيد الذي يمكن أن يعبِّروا فيه عن فرحة ما كان يمكن بأيّ حال من الأحوال أن تتَّسع لها منازلهم.. ماتوا حبًّا للوطن.. لجزائرنا الغالية التي رفع علمها لاعبونا في السودان ورفعوها هنا حبّا لجزائرنا لا مجاملة لأحد.. فرحوا.. غنّوا.. رقصوا.. حتى النساء رقصن.. رقصت الفتيات على أهازيج السعادة.. لم يكن العار يومها مهِّما كثيرا.. هل يموت العار مع السعادة؟؟

مرّت المباراة بردًا وسلامًا على الضفَّة الجزائريّة بل وأكثر، فما كسبه الرجل هنا خسره الآخر هناك وبفداحة..

لم تنم الصغيرة ليلتها بل أعادت مشاهدة المباراة رفقة أحلام كعادتها، نسيت بأنَّ لديها عملًا في الغد وحتى إنْ تذكَّرت فإنّ ذلك لا يغيِّر من ضرورة إعادة مشاهدة الفرحة النادرة شيئًا..

نسيت كل شيء ولكنّها لم تنس رجلًا أوصلها إلى بيتها في الثامن عشر من نوفمبر 2009 بالذات، ومسح عنها ولو مؤقتا بعض مخاوفها دون أن يكون قد قال شيئا تمامًا..

مرَّت الأيام الموالية للثامن عشر من نوفمبر كأجمل أيَّام الجزائريّين فعزّتهم التي فقدوها ذاك الزمن.. هُيِّىء لهم بأنّهم قد استعادوها..

«بوم عنتر يحيى» في الدقيقة الأربعين أظهر بأنّ اللعبة التي عوّل عليها الطرفان كان لابد أن يكون فيها خاسر، وقُدّر هذه المرة أن يكونوا هم الخاسر..!

.. كيف للأمر أن يكون بهذه البساطة؟!

***

رغم أنّ القدر وخالتي هجيرة كانا دوما يحاولان أن يقولا لعمي عمار شيئًا ما، إلا أنّه لم يُرد أن يستمع لأحد، بعد مرض أمه قرّر الرجل بأنّه لا يستطيع أن يستمرّ في الابتعاد عن عائلته ولن يتخلّى عن «إخوته» طبعًا، وهكذا فالعودة بالبنات وأمهنّ إلى الحيّ الشعبيّ وإعادة أمّه إلى البيت ليجمع هؤلاء المسكينات تحت سقف سرداب واحد هو الحلُّ الأكثر ملائمة للعبته.

أمُّ مريضة مرض الذلّ.. زوجة مكسورة مهمومة خائفة.. وبقايا رجل يحاول أن يستعيد نفسه.. كلّ يوم يسعى وراء رجولته الضائعة منه هنا في مكان ما عند فريق ما.. وبنتٍ تائهة بين زمن لم تعرفه يومًا وآخر لم يعرفها يومًا، زمن عاشته دون أن تحياه حقًّا وآخر عاشته ولم تُرِد أن تحياه أبدًا، أفضل شيء حصل هو أنّ أحلام لم تكن تعي ما يحصل.. حظُّها وصغر سنِّها جعلاها أفضل الخاسرين..

استمر التفكير بعمي عمار أيامًا فناران تحيطان به أكثرهما توهجًا أقلُّهما ضررًا، هو يعلم جيّدا بمعاناة زوجته ومرض أمّه، يعلم بضياع أحلامه.. يا تلك الأحلام.. رغم كل ما فقده ورغم كل ما سيفقده قرر أن يغادر منزله الافتراضيّ البارد النديّ الذي بناه بيديه ليسكنه مع ابنة العمّ ويعود إلى الحيّ الشعبيّ لئلا يكون جزءًا من هذا الخراب بعد الآن، وسوف يبلِّغ قراره هذا «للخاوة» وكان ذلك في إحدى المرّات

التـــي يذهب فيها عمي عمار إلى مخبئهم محملًا بأكاليل التوبة والغفران حاملا معه ما اعتادوه منه من مأكولات لذيذة يشتري بها رضاهم عنه فيكتبونه في قائمة الأطهار الذين لم يمسَّهم كفر الديمقراطيّة بشيء.

عندما لمح «إخوته» من بعيد رفع يده ولوَّح بها تحيّةً لهم ولكن بدا له بأنّهم لم يعيروه اهتمامًا أو لعلّهم مشـــغولون بأمر آخر أهم فلم ينتبهوا لوجوده، هرول نحوهم نزولًا على أعشـــاب المنحدر الناعمة قابضًا على ما سيســـلمهم إيّاه ولكنّه عبثًا حـــاول الدخول في مجال رؤيتهم، فقد كانوا رابضين خلف صخور التلة المشرفة على غابة الموت بانتظار حافلـــة ركاب تعج بأرواح بريئة رجالا ونســـاءً، اســـتاء مما كان يراه فسرقة ممتلكات الآخرين ليســـت من هواياتـــه، لذلك رأى أن يتقدّم من الطريق المعبّد وسط أشـــجار البلُّوط باتجاههم ليذكرهم بأنّ المال المسروق حرام على آكله وإن كان المسروق منه كافرا.

واجهـــه منظر هائل عظيم لم يقو قلبه المؤمن أن يتحمّله ولم تســـتطع شـــهامته أن تتقبَّله ولم يقوَ عقله على تصديقه.. فهـــؤلاء الذين تكبَّد كُلَّ المسافة ليوصل أكلهم.. هؤلاء الذين ظُلموا.. هؤلاء الذين قطع طريق أشجار البلوط وصعد على ســـفح التلة لينهاهم عن السرقة.. هؤلاء.. «إخوته» الذين يقارب عددهم المائة.. قتلة..!

خرجوا من وراء الصخور.. أوقفـــوا الحافلة.. أنزلوا ركابها.. نهبوا أموالهـــم.. ربما ذبحوهم جميعـــا.. تركوهم للذئـــاب.. اختيرت أَمَة

الزعيم.. اقتُسِـــم ما بقي من رماد الحافلة في جو شبيه بطقوس غجريّة تقوم حول مأدبة عشاء..

دامت المذبحة حوالى نصف ساعة كاد عمي عمار أن يجن خلالها فكل مـــا حارب من أجله يومًا صار هباءً منثورًا، آلمه أكثر أنّ الجريمة كانت في معركة ظالمة بين أبرياء عزّل وبين قتلة مدجّجين بالسلاح والحقد.. و«الحق»..!!

كلّ شيء من حوله صار شاهدًا، الأشجار ستشهد يومًا، والصخور ستشهد يومًا، حتى الدماء ستشهد يومًا..

.. الله.. الله نفسه كان شاهدًا..

شيءٌ ما بداخله جعلـــه يفكّر بزوجته، شيءٌ ما دفعه عائد إليها، رغم أنّ ما حصل كان يثير في النفس شـــعورًا بالاشمئزاز والخوف ولكنّه في تلك اللحظة شـــعر بحنينٍ جارفٍ إلى خالتي هجيرة، تمنّى لو أنّه ما خرج من المنزل بعد شـــجاره معها، تمنى لو يلقاها حالًا فيُلقي برأسه على صدرها ويبكي في حضرتها علها تحتميه من دوِّي انهياره، تمنى لو ما فعل شيئًا دون رضاها، في تلك اللحظة بالذات تأكَّد عمي عمار بأنّ زوجته كانت دائمًا على حق..

سحب نفســـه من خلف صخور التلَّة المتراكمة أسفلها كنتيجة جماليّة لحركة مياه الأمطار، سحب نفسه متسلِّلًا راجعًا يجر أذيال الخيبة والندم

مطأطئًا مكســورًا مذلولًا موجوعًا من دواخل دواخله، صراخ وعويل النســوة ينخر كبرياءه، والجثث المشوَّهة تُدمي إنسانيَّته وبقاياها تقتلها، واختباؤه أسفل التلِّ يســترق النظر يوجعه جدّا.. أمَّا الحشرجة المتأوِّهة للطفل الصغير- الذي يبدو بأنَّ السكين لم تمزِّق عروقه جيِّدًا- تعيق الهواء وتمنعه من الدخول إلى حيث لم يبق شيئ في عمي عمار على قيد الحياة..

مرَّ دهر أو أقل أو أكثر على نصف الساعة، لم يكن يدري ماذا يحصل ولكنّه عاد إلى دنياه في النهاية فالهــروب من الواقع لم يَدُم لأحدٍ أبدًا، وكلّ ما فكَّر فيه هو ملاحقة هؤلاء لــه بعد تخلّيه عن إطعامهم، ماذا سيكون مصير عائلته؟ كيف سيحميهم؟ أين سيذهبون؟..؟!..؟!

.. أنْ تكــون من الخاوة يعني أنّك منهم فقط ولســت أمرًا آخر غير ذلك.

عند عودتــه إلى المنزل أخــيرًا.. والطريق اليوم أطــول من أيّ مرّة مضت:

- هجيرة.. هجيرة.. كانت هذه أوّل مرة يناديها باســمها لأنّ اسمها المعتاد عنده هو « يا مرا»!

***

بعد النوفمبر السعيد أخبرها عن زوجته وأطفاله.. ذات يوم قال لها بأنّها تلعب بالنار.. إنّها أواخر الشتاء والربيع آت يوما..

على جرعاتٍ؛ يومًا بعد آخـــر تحتسي غيرتها، تحيا كلَّما كلَّمها وتموت عندما يكلِّم الأخرى.. أتراها تتناول سُمَّه مرفقًا برأفته الأبويَّة كترياقٍ يخفِّف عنها ألم موتها اليوميّ بدل أن يخلِّصها منه..

عائـــدًا إلى الأخرى من لقاء صغيرته كآخر إنســـان يشـــتهي رؤيته يودِّعها.. عائدًا إلى زوجتـــه.. هل تفرح كالأطفال أم تحزن « كعجائز القمر»؟..

بحوزة الأخرى أربع قنابل تفتك صغيرة زوجها بها، وســـاعية هي إلى الهوجاء بغير ســـلاح! ذلك أنَّها لم تعلم بأمـــر الهوجاء إلَّا، وككلِّ الشعوب العربيَّة.. متأخرة..

.. ليس أسوأ من غيرة متأخرة!!

مجاهرة بامتلاكها لأغلى رجل عرفه تاريخ عمر الصغيرة العشـــقيّ، تُنازِلها دون حتـــى أن تعلم بوجودها.. فوَّهة مدفعها الرباعيّ تصوِّبها نحوها.. تغتـــال كلّ كبريائها.. هـــذا الرجل مُلكٌ لهـــا إذن، وليس للصغيرة أن تنتزعه منها فتطيح بعرشها وتمسح بأرستقراطيَّتها أرض ذكرياته، ليس لهـــا أن تهدم حضاراته رغم جوعهـــا الرهيب للهدم،

تخاف أن تشوِّه ماضيه فينهار أناها، كشعوبٍ عربيّة خرّبت ماضيها.. فسطا الخراب على حاضرها!

– هل سأفعل هذا حقًّا؟ هل سـأكون زوجة ثانية حقًّا؟ أأملك كلّ هذه الشجاعة ولا أدري؟.. تساءلت الصغيرة في صمت.

كتناثر تلـك الأيـام.. ذاتُ الأيـام.. تناثرت كرامتهـا وأنوثتها، وكبرياؤها، عصمتها وعصاميَّتها، اعتصامها بتلك الأيام..

– متى غيّرت نظرتي للحياة؟ متى قرَّرت قبول هكذا حب؟ من أين لي هذا؟ كيف لي هذا؟ هل لي هذا؟؟

.. واصلت صمتها المتسائل.

سألته التي في بيتها خفُّ محمله:

– ألديكَ امرأة أخرى؟

...الصغيرة ربما..؟

أجابها صِدِّيقا كما عرفته صغيرته دائمًا:

– أجل..

لم تعره اسـتغراباً.. ألم تكن تعرفه بما يكفي؟ كيف بالله عليها ساكنته طوال هذه الحياة؟ كيف عاشرت هذا العنقاء ولا تدري؟

استطرد إمعانًا منه في صدقه المستمرّ:

- ولكن المهمّ أنّني أعود لأبيت هنا... معكم..

.. المهمُّ أنّه يعود ليبيت عندها.. ولكن العنقاء لن يجالسها كما يجالس صغيرته، لن يضاحكها صخبًا، لن يوصله امتلاء جسدها على جماله حتى إلى منتصف الطريق المؤدّية إلى رعشة العاشق المستنسخة حبًا عن شغف صغيرته، لن تعرفه يومًا، أمامها زوجٌ طبيب، وفي حضرة صغيرته هو العاشق الحبيب.. ألا يكفي الصغيرة هذا عزاءً..؟

لن تعيش يومًا لتحدّق به عاريا ملء أعينها، صوته معها حيّي في انتحابه الحزين المحتجب كعروس تخشى أن تنال الأعين من عذريّتها، وبين ذراعي صغيرته عرّى صوته على روعته شاديًا.. أحبك.. يا أمي الصغيرة.. عرَّى عينيه ليبصرها سيدة نساء الدنيا.. أحبك.. يا أمي الصغيرة.. عرّى قلبه ليتوجها محضيّة قصره الرخاميّ، صرير مفتاح غرفتها يستفز رجولته قادمًا إليها، همساته الصارخة تدوِّي أرجاء قصره الرخامي.. أحبك.. يا أمي الصغيرة.. هامسًا..

.. لعلَّه يشتهي أن يتكلم هامسًا عندما يتكلم عن الحب..!

هو الرجل العنقاء، هو الحاكم الجائر في ابتعاد صغيرته عنه، هو الذي لم يره أحد عاريًا إلا أمُّه... وأمُّه الصغيرة.. أليس« الكبرياء.. ألا يراك الآخر عارياً أبدًا» تتساءل «أحلام مستغانمي».

يســتلزم منطقيًّا أن تكون الأخرى مجرَّد آخــر إذن..! وفي هذا عزاء لذكائها..

- لا أظــنُّ هذا الرجل ســيتوقّف عن مفاجأتي، مــاذا تقصدين بأنّه متزوّج؟ ماذا ستفعلين؟ عليك أن تهربي.

- إلى أين؟

- لا يهم فقط اتركيه وارحلي.

- بكل هذه البساطة!

- وما المانع؟

- أنا أحب دنيا! وهذا العنقاء هو السبب الوحيد لبقائي على قيد الحب، وأن أستسلم يعني أنّي أفقد كل ما بقي لديّ من احترام لنفسي.

- ماذا تقصدين؟ عودي إلى رشــدك، إنّ لهــذا الرجل زوجة هي أمُّ أولاده الأربعة.

- ولكنّها لن تحصل على أكثر من هذا.. وفي هذا عزاء لظلّي.

- ما بك هل تريدين أن تجلطيني؟ من تكونين أنت مقارنة معها؟

- أنا صغيرته اللذيذة.. أنا حبيبــة العمر، لعبته الغريبة، قطَّته المدلّلة، حبُّه الراقص، عشقه الممنوع، رغباته مجتمعة، مرحه المكبوت، نكاته

الشامتة، شـــاغلة وقته ودنياه، شغفه المجنون، أنا دموعه المستعصية ألماً وذرف دمعه الســـخيّ معًـــا.. أنا.. أنا سره الكبير، أنا شـــقيقة الروح... وفي هذا عزاء لمكري.

– والله ما عدت أعرفك، لقد جننت..

– الأعجوبة أنِّي وحدي من اســـتنفر تجاهي قلبه فأخرجته عن مجال الوفاء.. إنَّه الرجل العنقاء.. إنّه حب حياتي.

– لا تُطلقي كلّ هذه الأحكام، صدِّقيني إنّ الإنســـان لا يســـتطيع أن يبدي رأيه بمن يحبه لأن العاطفة تعميه وتظلّل عقله، أنا أرجوك أن تبتعدي عنه.

هي إنسان غريب ترغب بكثرة في أن تحب، فهناك دائمًا أناس يريدون أن يُحِبُّوا والحب عندهم شعور إراديّ مبتغى في حدّ ذاته..

عانـــت الكثير من المشـــاكل الكثير منها، وحصلت على شـــخصيّة متذبذبـــة فهي دومًا متردِّدة بين لا وأجل، هي شـــخص مؤثِّر جدًّا في الآخرين أفكارها تسترعي انتباه الناس غالبًا وهذا بفضل حبّها الكبير للاطلاع كمحاولة أخيرة للتميز، فالعيش في الظلِّ يخنقها.

وهكـــذا وفي رحلتها للبحث عـــن بقعة ضوء تجد فيهـــا القليل من الاهتمام والرعاية اســـتنجدت بوالد دنيا ليجد لها عملًا، وشاء الحب أن يكون في محلٍّ للحلويات..

بعينيه البنيتين كان ينظر نظرته الأولى، له استدارة غريبة حول عينيه التعيستين تجعل نظّاراته الطبيّة أجمل، هادئ جدًّا، كان يقف يومها أمام الباب واضعًا يديه خلفه، وحين خرجت صغيرته أمامه لمحها بدوره وابتسم وجهه الوسيم الهرم، كان يرقبها مسترقًا النظر من خلال فتحة الباب ويسأل نفسه طوال الوقت:

- هل أحبَّتني كما أحببتُها؟

فقط عليها أن تحبه بهدوءٍ كهدوءِ هدوئه الصاخب.. هدوءه يلتهم كل هفواتها، يداعبها، يشعلها، وينجيها من ناره، استكانتُها إليه تُربِكُها واستكانتُه إليها تُلهِبُها، فقط عليها أن تحبَّه كل يوم وكل عمر.. حتى ينتهي الحب.. حتى تبعث من جديد.. حتى تهبه كل ما فيها.. فتكون ملكه.. له.. فيه.. به... مرة واحدة إلى الأبد...

سيكون عليها أن تعيش أبداً لتحيى حبه، لتشاركه دفاعه عن شباك قلبه، فخطته الدفاعيّة بامتياز تحتاج لأنثى تتقن لعبة الحضور الطاغي في أكثر من منصب، سيكون عليها أن تولد آلاف المرات تحت قدميه، أن تعترف ببُنوَّتها له عند كل إغراء.. هذه الرحمة اللامتناهية المتدفقة حبًا تذهب بشهواتها إلى أعنفها.. تائهة.. هائمة.. عاشقة.. مستسلمة لانتداب أبوّته فيها، هذا الكائن على بساطته يأسرها، عفويّته المختبئة على استحياء يريد أن يقول أحبك.. فيقول:

– أحبيني.. «بلا عقد»..

على قدر سـيد الحب أحبته.. أحبَّت سـيّدها.. شيخ المحبين، شيخ الآباء، شيخ محميّة الرجال.. سيّد الرجال.. أحبته كما أمرها راجيًا..! بعنف، بلذة، بألم لذيذ.. إن جاز أن يكون للألم لذة، بانخطاف راقص، بانبهار موسيقيّ، بعفويّة القطط.. بكل ما آتتها الحياة من حياة..

يعلِّمها كل يوم حبًا على مقاسـها كلَّما أرادت وآخر على مقاسه إذا ما أراد، هو رجل البسـاطة الممعنة التعقيـد يتمنى عليها أن يرتديا ذات المقاس، يقول:

– أن تحبيني فأنت عرضة للضياع وستُضيِّعين ضمن ما سيضيع منكِ مقاسـكِ، أنْ أحبكِ يعني أن لا تفكري بعد اليوم بأيّ مصمم آخر وحدي معنيّ بإلباسك!

كمن لم يفهم شيئًا من سطوة كلماته تساءلت:

– لماذا؟

– لأنّني الرجل!

هذه أوّل مـرّة تدخل فيها كلمة «رجل» إلى قامـوس حياتها، قبلها كانت قبيلة الذكور المسـتذئبة المتاخمة لحدود وجودها تعيث بنفسيّتها خرابًا.

متى اســتطاع الحب أن يفعل بها كل هــذا؟ كيف له أن يكون جبارًا هكذا؟

الحب.. نحن حتما نســتطيع شرح كل شيء عنــه، أوهامه، جنونه، قبلاته، آلامه، صخبه، صمته، عواصفه، شغفه، دموعه.. انكساراته.. كل كل ويلاته، يمكن شرح كل شيء عنه.. إلا وجوده..

نحن نحب وكفى، نحن نحب ونفــترض بأنّنا نعرف كل شيء عن كائننا الحبّي، نعرفه تمامًا، نعرف بأنّه مزاجيّ وأنانيّ ومغرور... نعرف عيوبه كلَّهــا ونفترض أيضًا بأنّنا نحبها، كيف لهــذا أن يكون ممكنًا؟ أليس الحب عظيمًا؟ ننظر إليه فيخبرنا هامسًــا بأنّه يحبنا وهذا بالأصل يكفينا وكفى.. دون سبب..

***

- ماذا فعل ابني يا سيدي؟

- إذا لم يخرج حالًا سوف تموت العائلة بأكملها.

ارتجفوا جميعًا خوفًا ومهانة ولكن الصغيرة لم تفعل بل وقفت شامخة وكأنّ «أولئك» لم يقتحموا المكان ولا عاثوا بساكنيه ذلًّا ولا اقترب واحدٌ منهم من أخت رياض وأمسك بشعرها الناعم المنسدل نزولًا ليغطي انحناءة خصرها النحيل:

- إذا يا حلوة! رياض غير موجود؟

ارتعب الجميع وفهموا مقصد هذا الرجل الدنيء.. - إن صحّ أن يسمى رجلًا- ولكن الصغيرة لم تفعل بل استمرت شامخة وواصلت تنتف أوراق زهر الياسمين، عندما تقدّم الرجل من جدّها وضربه بمؤخرة مسدسه في نيّة منه لإسقاطه وقد كاد ينجح لولا أنّ ابنه الأصغر أسنده:

- هيا انطق أين...؟ وشدَّ على ثياب العجوز بقوَّة.. أين ابنك الكلب؟

- لقد أخبرتك يا بني هو ليس هنا أنا لم أره منذ أسبوع.

كانت الصغيرة متشبّثة ببراءة أطفال بيديها الصغيرتين اللتان علقت بهما رائحة البراعم بجلباب جدتها التي لفظت الشهادتين بين شفتيها

فلم يكن لها صوت سوى تلك الحشرجة تتردّد بين شفاهها لم تسمعها إلَّا صغيرتها الصغيرة..

الآن أدركَت بأنّ شـيئًا خطيرًا يحدث وبأنّ شـيئا مؤلمًا سيحدث.. فخافت بجنون.. خافت للمرَّة الأولى في حياتها ومَلَّت عبق الياسمين.. حدث لها أن لم تملك سيطرة على نفسها للمرَّة الأولى في حياتها..

تنفّسـت الجدَّة بقوَّة وتنهَّـدت وكأنَّها تبتلع الهـواء للمرَّة الأخيرة، ألقـت بعكازها بعيدًا وكأنّهـا لم تحتج إليه يومًا، واسـتقامت وقفتها رافعة رأسها إلى حيث المجد والخلود وكأنّها لم تمرض أبدًا من قبل.. ثم أفلتت يد صغيرتها بهدوء بعد أن ضغطت عليها وكأنّها لا تريد تركها قطّ.. استجمعت كل فتات القوَّة الذي بقي بداخلها واستذأبت كأيّ أمّ بربريَّة شاهقة رجولتها عال رأسها وهجمت على شبيه الرجال ذاك ممزقة دليل وسامته الوحيد..

تسـمَّر هذا الشيء مكانه ولم يصـدّق لفرط جبنه بـأنّ هنالك من الشجاعة في قلب امرأة عجوز ما يكفي كل رجال العالم وأسياده.

انهارت العجوز مبتلة الأسمال أرضًا فتبوَّل الصغيرة على نفسها خوفًا كان لأنَّها صغيرة أمَّا جدتها فلشـدة ما أَخَافَت لم تعد صغيرة.. وبللها المزمن ليس لأنَّها صغيرة..!

سقوطها على الأرض ولّد صراخًا جنونيّا لدى أولادها، بينما وقفت حفيدتها برهـة تنظر إليها وهـي تغمض عينيها وتلفظ الشـهادتين

بصوت مرتفع هذه المرة، حاملة سبابتها اليمنى وهي ترمق صغيرتها بنظرة ما.. فانتفضت فجأة وتراجعت إلى الوراء وكأنّها تلوم جدَّتها على شيء ما، شيء حدث بينهما، هما فقط تعرفانه.. فثمة دومًا أسرار بين الجدّات وصغيراتهن..

أمام كل ما يحدث لم تتحمَّل كرامة رياض الاختباء بعيدًا فقفز من مكانه وخرج من مخبأه خوفًا على عائلته من وقوع أمور قد لا يسامح نفسه عليها مطلقا إنْ حصلت.

جرى «أولئك» نحوه وطوّقوه وبنبرة ساخرة منتصرة قال شبيه الرجال:

- أنت هنا يا كلب.. قيِّدوه وجرُّوه إلى العربة.

- رياض يامَّي! ماخْ هْسوطيذ؟![1]

اتَّخذت الحفيدة لها مكانًا نائيًا وأخذت ترمق كل هذا بعينيها المبتسمتين وجلًا، كأنّ لا شيء مما يحدث يعنيها بعد الآن، تنظر إلى جدتها الملقاة أرضًا وخالتيها المرتميتين على جثة الأسد الميت تندبان فقدانه، ثم تسترق نظرة إلى «أولئك» يجرون أروع خال في هذا الكون بأكمله.. بجباله ووديانه.. بمدنه وقراه.. بأنهاره وبحاره.. بسهوله وأعشابه الناعمة.. رياض هو الأروع على الإطلاق!! ثم تعيد النظر

1 - كلمات باللغة الشاوية وتعني: رياض يا بني! لماذا قفزت؟!

إلى جدّتهـــا ثم إلى جدها وخالها الأصغـــر اللذان يلحقان رياض وهو يطلب منهما الســـماح فالكل كان يعرف بأنهم يرونه للمرَّة الأخيرة.. قبل اضمحلاله.. تقلّب نظرها حيث صراخ وبكاء خالتيها يكاد يبلغ عنان الســـماوات.. ثم تنظر إلى نفسها.. إلى ثيابها المبتلة ولا تعرف بأنّ الخدر أصاب ســـاقيها فهي لم تخبر هذا الشـــعور قبلًا، ولا كان لديها وقت لتشـــعر بهكذا تفاهة، كل ما أرادته في هذه اللحظات هو العودة إلى المنزل شعرت بأنّها لا تنتمي إلى هذا المكان ولا إلى هؤلاء الناس..

اختفى رياض في هدوء الدرب المشقوق وسط الزيتونات إلى الأبد.. واختفى خلفه حلم صغير خاسر بقضاء عطلة ربيعية جميلة، فيكفي أن تنوي هذه المسكينة اللعب حتى تقوم الدنيا حولها ولا تقعد..

وحيدة هي وخائفة.. كورقة ترتجف ظلّت واقفة هناك دهرًا دون أن يلحـــظ وجودها أحد ودون أن تتمكن من التوقف عن التبوُّل، مرّت عليها سنوات وهي باســـقة في ذلك المكان، سنوات للضياع وأخرى للحرمان، ســـنوات للألم وأخرى للذلّ، ســـنوات للعذاب وأخرى للجروح.. سنوات للموت..

لم تنـــس الصغيرة ذلك اليوم أبدًا ولم تعـــد إلى بيت جدها بعده أبدًا، تركت جســـدها الصغير منتصبًا هناك وغـــادرت إلى حيث لا عودة، لم يهمّها إن بقيت صغيرة دهرًا، الوحدة والخوف اللذان شـــعرت بهما يومها فاقا قدرة اســـتيعابها، فغادرت إلى حيث عمي عمار، سارت في طريقها الموهوم دون أن تكون قد تركت مكانها تمامًا..

منذ صغرها وهي صغيرة، منذ صغرها مازالت صغيرة وهذا الطريق ما فَتِئ ينتهي..

إنّها الآن كائــن ضعيف كأضعف ما تكون الصغــيرات، مذهولة؛ بلهاء تتَّخذ ركنًا صغيرًا من المنزل ســكنًا لهــا، لم يلاحظ أحدٌ فداحة خســارات هذه الصغيرة ولا ألقى أحدٌ بالاً لصمــت أنينها رغم أنّه كان مدوِّيًا في أرجاء المكان.. لكثرة المصائب هنا لم يعد لألمها ترتيب.. أمُّهــا المنهكة من تعب الوضع لم يعد بوســعها التحمُّل أكثر رغم أنّها تبدي قوَّة الألف رجل، لقد خارت قواها وتســلَّل البرد إلى عظامها فانتفخت رجلاها واحمرَّت عيناها من كثرة السهر والبكاء والسير في برد قسنطينة اللاســع الذي أخذ منها رفقة صحَّتها.. حنانَها، وهاتان الصغيرتــان أخذتا في الابتعاد عن أبيهما، فشيء ما داخل أشــبال كل لبؤة يحذرهم من الأســد عندما يكون هائجًا، وعمي عمار وصل إلى أقصى درجات حياته الهيجانيَّة..

إنّ أحــد أهم أجزاء علاقة عمي عمار بعائلتــه بدأ يتآكل ويذوب.. الحب..

بقاء الصغيرتــين وحدهما طوال الوقت جعل الأمر قاســيًا عليهما، أحلام لصغر حجمها وعمرها كانت تلقى الرعاية من خالتي هجيرة عكس أختها التي أحبّت عمي عمار أكثر فلم تكن تفعل شــيئا خلال ســنواتها الأولى إلا وهي معه، لقد غمرهــا أبوها ببعض حبه وبادلته

بكل مـــا آتتها الحياة من براءة حبًّا أكبر، واليوم فقدت الاثنين معًا فلم يعد لدى خالتي هجيرة متَّســـع لحنان أكبر تمنحـــه لصغيرتها الأكبر، ولم يكن لدى عمي عـــمار وقت لأيّ حنان وربما لم يتبق لديه شيء منه بتاتًا.. ورياض.. قد مات.

مـــرَّت الجنازة المزدوجة لرياض الميت فرضًـــا وأمِّه بشيء من الحزن وكثير من التســـليم للقدر، فقد بدأ الناس يعتـــادون موتهم مقتنعين بقدرهم المبهم ومصيرهم المرسوم، صيّرهم الموت مجموعات إنسانيَّة مندهشة أكثر منها خائفة.

يدفنون كل يوم عزيزًا ويودعون أحلامهم إلى جواره التراب، يدفنون كل يوم حبيبًا ولا يشتاقونه بانتظار لحاقهم به..

لم نخسر شـــيئًا أيامها بل كســـبنا قدرة الجفاء.. كلَّا لم نخسر الحب.. الإخلاص.. الكرامة.. الصفاء.. الإحسان.. البرّ.. السلام.. الجمال.. العفوية.. الخير.. كل الخير.. لم نخسر كل ذلك بل أَكسَبنا القدر أقنعة حيوانيَّة غابيَّة، لكل منَّا قناع على مقاسه.. أغلبنا ضباع مستذئبة..

كم آمن الناس أيامها برخص النفس البشريَّة، تريد أن تغادر ولكنّك لا تجد مكانًا تهرب إليه، لأنّ وطنك ما عاد يتَّســـع لأيّ جرح آخر فقد ســـبقوك واحتلوا كل بقعة ضوء صالحة للبـــكاء، وأنت اليوم سريع الانكسار والخوف والخيانة والنسيان والألم.. والموت..

إنّ الذين قبلــوا بمنطق الوئام المجنون هم بقيّة ما تبقى من شــعب استنزف الموت عقله أثناء تزاحم القبور، وحده الخائف من الذبح قال نعم..

أولسنا متساوين جميعا أمام خوفنا من الذبح؟

.. تحيّة إلى شهداء التسعينيّات الأحياء منهم والأموات..

***

« أسوء ما قد يحصل للمرء أنْ يبقى دون حب ولا عمل ».

حكمة ما

«.. وكلُّ ذلك كان مكتوبًا فوق».

ديدرو

***

في تلك الأمسية الغريبة التي حصلت الصغيرة فيها على أوَّل علامة امتيـــاز في مادة الرياضيات لم يكن يوجد في البيت أحد، دخلت لاهثة تبحـــث عن أمها بغريزتها؛ تريد أنْ تطلعها على علاماتها فهي تعلم أنّ عمي عمار لن يكون هنا لأسبوع آخر وإلّا لأسرعت إليه أولًا.

- أمِّي! لقد عدت.. أيـــن أنتِ؟ ألقت نظرة خاطفة على المكان ولم تر أحدًا إلّا أباها.

في منـــزل عمي عمار أنت لا تحتاج أن تبحث في الغرف كلها، فالمنزل هو غرفة واحدة كبيرة تتوســـطها أربع أعمدة إسمنتيّة عريضة.. غرفة مظلمة باردة لا حب فيها ولا نور.. غرفة كبيرة.. دهليز..

منزل افـــتراضيّ لأنّ هذا الرجل لم يكن يهمّه بشـــكل كبير إتمام بناء منزله، بينما أتاح ذلك لساكناته أنْ يتخيَّلن منزلهنّ كما يحلوا لهنّ.. فبين العمودين الأولين إلى غاية حدود فتحة الباب غرفة المعيشة.. وحيث آخر عمود مطبخ افتراضيّ بجانبه غرفة نوم البنتين وأخرى للوالدين وحتى غرفة استقبال إنْ أردن، أليس الخيال متاحًا للجميع مجانًا!!

- أبي! أنت هنا متى عدت؟..

ركضت إليه وارتمت عليه ضاحكةً فرحةً برؤيتها له أكثر من فرحتها بعلاماتهـــا، ضمّته إليها بقوة ولم تلحظ جفاءه الزائد تجاهها هذه المرة،

كان متكوِّما في الركن قريبا من ذات الكرسيّ الخشبيّ.. رأسه بين ركبتيه وذراعاه تلفَّانه، بداخله أصوات قاسية تعذِّبه وتسخر منه، تجلده وتضحك على عواءه المكتوم، كمن فقد عزيزًا كان يئنُّ من الألم؛ عضوٌ ما استأصل من هذا الرجل!

- متى عدت أبي؟ لقد اشتقت إليكَ، سألتُ أمي عنكَ كل الأيَّام الماضية وكانت تقول بأنّك ستعود قريبًا ولكنها لم تخبرني الحقيقة لأنّك أطلت غيابك عنّا حقًا هذه المرة.

لم يردَّ عليها بل انتزع رأسه من سردابه بتثاقل عنيف وحدِّق بعيني خالتي هجيرة المزروعتين برأس صغيرتها الصغير.. بينما أتمَّت كلامها:

- وقالت بأنّها المرة الأخيرة التي ستغيب فيها عنّا.. ثم توشوشه.. سمعتها تهمس لخالتي ذلك اليوم عندما زارتنا قالت بأنّك ستترك الجماعة، أبي صحيح أنّك لن تغيب عنّا؟ قل أهذا صحيح؟

دفعها بعيدًا عنه وانتصب واقفًا وهو ينخرها للمرة الأولى بتلك النظرة التي تبعث فيك ذلك الشعور المألوف وسألها:

- أين أحلام؟

- لا أعلم، تركتها هنا مع أمي صباحًا، صحيح أين هي أمي؟

- ابحثي عنها عند دنيا هيا تحرّكي.

- لماذا؟

- قلت تحرّكي.. توقّفي عن طرح أسئلة أمك الغبية.

- أين أمي؟

شد على نعومة وجنتيها بيديه المنكسرتين حزنًا وحرَّكها لمرَّات، حتى يُشعرها بألمٍ أراد له أن يحدث من عدة نواحٍ.. وصرخ بها:

- قلت توقّفي عن طرح الأسـئلة الغبيَّة التي إعتادت أمك طرحها، أحضري أختك حالًا إلى المنزل وإياك أن تتأخّري..

.. ثم أفلتها..

- أنتنّ عار.. أنتنّ إثمٌ شديد.. أنتنّ عار..

حَبَسـت دموع ابتسـامتها خوفًا، ولكنّها لم تملك إلى دموع ساقيها شيئًا.. فهذه وجه آخر للخوف..

.. سـارت الصغيرة في طريقها.. يا ذلك الطريـق المظلم الذي كلَّما أظلم عليها مشت فيه، منذ صغرها وهي صغيرة منذ صغرها مازالت صغيرة، وهذا الطريق ما فتئ ينتهي..

- أحلام! هل أنت هنا؟

تناديها أحلام من وراء الباب:

– أنـــا ألعب بدمية دنيا الجديدة وقد عادت من المدرســـة الآن مثلك، أدخلي لنلعب معًا جميعًا..

– كلَّا علينا أن نعود الآن، أبي في البيت.

تجري:

– دنيا! غدا نلعب صحيح؟.. نـــادت أحلام على دنيا بصوت مرتفع لتسمعها من وراء الباب الموارب.

– متى عاد أبي؟ لقد خرجت صباحا لألعب في بيت دنيا ولم أره عندما عاد.

– أين أمي؟ ألم تريها منذ خرجت؟

– كلَّا.. آه حقًّا قالت بأنَّ أبي سيعود اليوم ولن يغيب بعد اليوم.

– ولكنّها غير موجودة في البيت أين تكون ذهبت؟

– اسألي أبي.

– إنّـــه غاضب ولا يريد أن يجيب، لا تســـأليه عـــن شيء ولا تكلّميه مطلقًا.

أحلام ليســـت بحاجة للنَّصيحـــة أبدًا فالجـــدران الافتراضيَّة التي وضعتها بينها وبين عمي عمار لم يكن هناك ما يمكنه تحطيمها.

***

.. هجيرة هربت.. يا للعار..

تركت بناتها غادرت زوجها.. وهربت.. يا للعار..

الآن لن يسكت أحد، الآن للجميع أن يحاكمها، الآن لن يرحمها أحد فالعار قد حدث..

- عمار يا وليدي! لماذا تجرّ الفتاتين هكذا؟ على رسلك بني.

- إياكِ أن تقولي شيئًا فهنّ عار.

- ماذا تقصد؟ إنَّهما مجرَّد صغيرتين.

- صغيرتين لأمّ فاجرة.

- حـــرام عليك أن تقول هكـــذا كلام على زوجتـــك، فهجيرة امرأة شريفة.

- هربت الشريفة يا أمي! لقد هربت وألحقت بيَ العار.

- مستحيل ماذا تقول؟ هذا مستحيل..

- هذا واقع..

.. يدفع بالبنتين إلى الغرفة ويوصد عليهما باب الشرف..

- لكن متى؟ كيف؟ ماذا تقول؟

يجلس على الأرض ممسكًا برأسه قابضًا على قلبه فما يعانيه ليس موتًا إنَّه العار..

- أختي! ماذا يعني أبي بأنّ الشريفة قد هربت؟

- الظلام هنا شديد أريد أن أخرج.

- لا تخافي يا أختي! سوف نخرج قريبًا وسوف نرى النور، أخبريني من الشريفة؟

- دعيني أستمع إلى كلامهما لأعرف شيئًا، ولكن تمسّكي بي جيّدًا أحلام! فأنا أخاف الظلام.

- بعد أن أتيت بكِ إلى هنا أخبرتها صباحًا بأنْ تجمع أشياءنا لنرحل ونجتمع كلّنا هنا.. ولكنّني عندما عدت..

أسكتته الحنقة في صدره على امتداد حنجرته.. ثم أكمل:

- لم أجدها لقد هربت..

- ولكن كيف عرفت بذلك؟ ربما هي عند إحدى الجارات!

- كلا لقد بحثت عنها، ثم إن خروجها من بيت زوجها دون إذن يعدُّ عارًا بحدّ ذاته.

- أنـــا لا أصدق، عليك أن تبحث عنها جيّـــدا قبل أن تقول مثل هذا الكلام الخطير.

- أنا أعرف ما أقول، أنا أعرف ما أقول لقد أخبروني بأنّهم رأوها.. أنا أعرف ما أقول ولا أريد أيّ جدال في هذا الموضوع هل هذا مفهوم؟

- منِ الذي رآها؟ ماذا يحدث؟

- قلتُ لكِ بأنَّ هجيرة هربت ولا أريد ذكر هذا الموضوع مرَّة أخرى فاســكتي ولا تدعيني أنســى بأنَّك أمِّي.. فأنتنّ عــار.. أنتنّ إثمٌ عظيم.. أنتنّ عار..

في ثورة هيجانه.. أسرع باتجاه ســجن بنتيه وفتح بابه.. ركل أحلام فأســقطها بعيدًا عن أختها.. حمل بقعة البول تلك من خديها ورفعها عاليًا ليحدِّق بها ملئ عينيه فهو اليوم يكرهها ويريد لها أن تموت حتمًا..

- يجب أن تموتي أنت صورة عن أمك.. أنتِ عارٌ يحاك لي في الظلام.. أنتِ أسوء ما حصل لي في حياتي..

كانت الجدة مرتعشــة القلب مرتمية على رجلي ولدها المرتجفتين وفي محاولة منها لثنيه عن نِيَّتــه الآثمة قبَّلت أصابعه وهي ترجوه أن يترك ابنته وشأنها.. بينما لم تفعل الصغيرة غير التبوُّل، تنظر إلى وجهه الأحمر وعينيه السوداوين بعمق، جزءٌ منها يصرخ أمِّي ذَهَبَت والجزء الآخر كان يبكيها، أمَّا أناها فلم يفعل شيئًا فقط هذا العلو الشاهق يعنيه..

عندما عَلِمَت بأنَّ أمّها قد غادرتهم لم تعد تعلم ما يحدث حولها فقدت اتصالها بالعالم الخارجيّ، هي لم تقبّلها صباحا.. لم تودّعها.. لم تقل لها كم أنّها كانت سعيدة بالعيش معها طوال هذه السنوات.. لم تنظر إليها ملـــئ قلبها وعقلها وحنانها لتتذكّر وجهها إلى الأبد.. كان قلبها يخفق بقوَّة وهذا مـــؤلم جدًّا وهي لم تتحمّله، كان يؤلمها كثيرا إنّه لا يحتمل.. لن ترى أمها مرّة أخرى.. عمي عمار يكرهها.. ورياض قد مات..

ذهبـــت هجيرة مع الريح ولم تعد.. على عمي عمار أنْ يســـتيقظ غدًا وتكون هي قد ماتت بكل اللغات.. ليعيش أبدًا.. لابدّ لهذا التمثال أنْ يدفن وعلى حرائقه أنْ تنطفئ، عليه أنْ يرتدي معطفه البنيّ كأنّه قطعة ثياب مجرَّدة من عبق مســـتعمِلتِه فيفقد هذا الشيء عاطفته المختزنة في قيمته ويصبح بإمكان عمي عمار مع صغيرتيه أن يشيعوا تمثال هجيرة.

لن يســـامحها يومًا وســـوف يعيش مع هذا العار إلى الأبد، ســـوف يتعذَّب بها هي التي عذَّبها دائمًا، سوف لن يعرف السكينة يومًا فالعار ينمو على وجهه كل يوم.. كل ســـاعة.. كل دقيقة.. كل شهقة عار.. كلّما تذكر بأنّ هجيرة زوجته.. كانت زوجته..

لن يســـامحها هو الذي يعتبر ســـلامها على عمِّها عارًا لن يستســـلم حتى يقتل ذكراها بكل القلوب وهذا ليس غريبًا، فمن شـــيم الرجال المســـتحدثة أن يقبلـــوا بك محتلا لأنّهـــم لا يســـتطيعون إخراجك، ويقبلونـــك قاتلًا لأنّهـــم لا يملكون لك شـــيئًا، ويُرحِّبون بك حزبًا

إيديولوجيّـا لأنّهم يخافون إلغـاء انتخاباتـك.. ولكنَّهم لا يغفرون لنسائهم ولا حتى ظهورهنَّ للعلن لأنّهم يستطيعون تأديبهن، فالمسألة إذن هي مسألة قدرة جسديَّة لا أكثر ولا أقل.. وربّما هي مسألة ترتيب للعار!!

***

كم كان الشـــتاء طويلًا تلك الســـنوات.. آهٍ كم كان الشتاء طويلًا.. وكم هي جميلة رائحة هذا الربيع الشتائيّ.

انصرفَت من العمل ذات مســـاء جميلة كأجمل ما تكون الصغيرات، أسرعت إليه فشـــقيق الروح ينتظر، وكحبيبة تنتعل عنفوانها لم تستطع التوقف عن الجري..

– أنا ذاهبة إلى حيث لا شيء إلا سيِّدي الحبيب.. خاطبت نفسها.

هـــا هو منزله جميل كما توقَّعت.. ها هـــي نافذة غرفتهما الخجولة كما توقَّعتها.. وها هو باب السرداب..

لا شيء بداخلها قال لا تذهبي، لا شيء منها قال لا تذهبي، لا شيء حولها قال لا تحبيه، فِكرُها قال رجل متزوج و أكمل ســـباته، وقلبها قال أنا أعشقه وأكمل ارتباكه المتيقّن..

– آسفة لأنّني جعلتك تنتظر طويلا.

– لا مشكلة في ذلك، انتظاري لك أجمل ما حصل معي في حياتي.

– كيف حالك سيدي؟

..سيدها الحبيب.. طبيبها المداوي يعلِّمها أن تصغي السمع له وحده ثم يتركها فلا يكون في وســـعها أن تصغي السمع لشخص آخر أبداً،

يجعلهـــا تحفظ تراتيل حبـــه المتلوّة على أذنيها همسًـــا.. ليس لها إلاّ أن تحفظها، فسيِّد الرجال أعظم من أن تُنسى صلواته، وهذا مربك لفتاة لا تتقن فن الثقة مثلها..

– هذا منزلك صحيح؟

– نعم.

استغربت وساورها إحساس غريب لم تعرف ما هو:

– أنت تعيش هنا مع زوجتك وأولادك؟

لم يجب على سؤالها لأنّه لا يريد أن يفسد متعة النظر إليها غيورة دون أن تعرف بأنّها كذلك:

– لو علمتُ بأنّ الحياة كانت ستهبني حبكِ لكنت انتظرتكِ دهرًا من الزمن ويزيد.

– أخبرني أنا أريد أن أعرف أين غرفة نومك؟

مازحًا:

– كان السؤال هل تعيش هنا؟ ثم أصبح أين الغرفة؟ أرجوك أخبريني على أيهما أجيب؟

– على الاثنين معًا، ولماذا سافروا جميعًا؟

- لماذا أنت عجولة دومًا؟

انتفضت بدلال مصطنع:

- لا تجب على أسئلتي بسؤال، هيا أخبرني.

- أمركِ.. نعم نعيش هنا وغرفة نومي هي الأولى أمامك.

- وتنام هي معك؟

ضحك بلذة واقترب منها:

- يا قطتي الغيورة كم أحبكِ.

- أنا لا أغار، لا تقل هذا.

يقترب منها خطوة ويمسك بذراعيها بحنان أبويّ هامس ثم ينزل إلى مستواها ليحدِّق بابتسامة عينيها ملء عينيه الهادئتين:

- بلى أنتِ أجمل غيورة رأيتها في حياتي.

مرتبكة:

- هل تنام منفردًا حقًا؟

لم يُجب لأنّه لا يريد أن يُضيّع هبة الحياة وصغيرته معه في الردّ على أسئلة يعرف هو إجاباتها:

– ألا تريدين أن تري غرف الشقة كلها تعالي معي..

مدَّ يده فاستقبلتها بيديها وكأنّها فعلت ذلك دومًا.. سار بها مرشدًا فتبعته دون أن تتساءل حتى.. جال بها في المكان مداعبًا فضحكت ملء عشقها.. نظر إليها فبادلته النظرات.. هالةٌ من سحرٍ جنونيّ أنارت ابتسامة عينيها..

وجهَتُه شفتاها عندما خطا واثقًا من نفسه، ثقته الساحرة غرستها مكانها كالانتصاب الشاهق للنحت الصامت المقابل للنافذة، لم تهرب، لم تفكر بالأمر حتى!! تلذّذت بانتظارها له.. منتصبة..

طقوس أبوّته ذات الحب الراقص تمتصُّ آخر محاولات تمرُّدها.. الحب الراقص فنَّانٌ يمتهن كل الفنون.. الراقص راقص يرنو.. ملحّن يدندن الأنغام رقصًا.. مغنّ يشدو بالكلمات رقصًا.. عازف يعلو بالنوتات رقصًا.. كاتب يقرض الأوراق رقصًا.. ورسّام يبدع راقصًا أجمل اللوحات، الحب الراقص لحبيبها له طابع خاص، يُخضع طقوسه ليختلف عن الحب نفسه فيكون حبّا مجنونًا كلَّما أرادت.. وهما معا يكون الحب هو الجنون حين يتمادى في الانتباه؟.. وآخر حيّا إذا ما أراد.. حبّ يدفعهما لإتقان فنّ العيش.. حبّ البقاء..

.. أليس الحب أعظم ممَّا بالمجانين حقّا!

وجوده يطمئنها، بقاؤها جواره وحده يمنحها السكينة، مجرَّد النظر إليه يُشعرها بالإشباع، تلك الرعشة الخانقة، ذلك الشغف الأنثويّ،

لا ينبغي عليه أنْ يفعل شـــيئا ليمتلكها، فقـــط بقاؤه على قيد الحب.. يزيد أنوثتها اشتعالًا..

قابضًـــا على خاصرة عقلها هزَّها مداعبًا فاهتـــزّت معه كل أمنياتها، كمن يراقص أجمل نســـاء الدنيا تمادى في مراقصـــة مخيّلتها، مُتأوّها، هامسًا، مُشـــهرًا رجولته تارة وأبوَّته تارة أخرى.. في حضرة شموليَّة حبه سكتت.. لم يبدُ لها لائقًا أنْ تقاطع سنفونيَّة اشتهائه إيَّاها!

عاصفة تلك التي تدنو منها عبر شفتيه.. استرعى هذا العنقاء توقها..

استجمعت فتات قوّة غابرة وحاولت إخفاء خجلها، وكلما حاولت كان الأمر يصعب أكثر، حدَّثت نفســـها: عليّ أن أتماسك وأتجلدّ فهذا أنا.. جَرّبت أن تتكلّم فتبعثرت كلماتها.

حَدَّثت نفسها مرَّة أخرى:

- أظنّه يعلم جيّدا ما يحدث بداخلي.. إنَّه يقرؤني؟!!

قالت بضع كلمات ليســـت تعي معناها فردّ عليها.. ضحكَت باكية فبادلها ضحكاتها.

حسنًا..:

- لا مجال للهرب.. أحسَبها لحظة الحقيقة قد دنت..

أمام رجولته الصارخة لم تملك إلا الاختباء.. منه.. فيه.. بينما لم يفعل هو شـيئا، فقط وجوده كان كافيًا ليهزّهـا... لم تكن متأكدة قبلها من بُنوَّتها له!!؟

.. سمعته.. ناداها:

- حبيبتي..

خانتها شـجاعتها فلم تسـتطع النظر إليه، كرَّر نـداءه مرَّات كثيرة وشجاعتها خائنة.. مناجاته إيّاها أغرقتها فيه، دفعتها إلى عينيه.. كان صامتًا.. سمعته مرّة أخرى... حبيبتي..!

- هو صامت.. أتُراني أهذي؟ أجعلتني حُمَّاه أهذي؟ لقد سـمعته أنا أقسم.. تساءلت الصغيرة في صمت..

قبل أن تسـتفيق من هذار تسـاؤلاتها لم يكن يفصله عن شفتيها إلّا قبلته... فلم يكن العشق بحاجة إلى مناسبة أكثر إغراءً.

ضمّها بقوّة.. خـارت قواها دفعة واحدة فضمّهـا بقوّة أكبر ومنع سـقوطها الحتمي.. أمام إغـراءات رجولته وجدت نفسـها منهارة كليًّا.. فقط اسـتعماره لها حال بينها وبين الأرض.. شعرت بأنّه ينوب عنها في نفسها فسلَّمتها إيّاه دون أن تعي ذلك تمامًا.. احتلَّها فرحّبت بذلك مندهشـة، غزا كل شـبر فيها دون أن يفعل شيئاً هو لم يكلّمها حتى!!؟

كرهت أناها وسخطت عليه..

- كيف أضعف هكذا، هنا، الآن، أنا.. لماذا..؟

في مواجهة تساؤلات لا إجابة لها عنها استسلمت لاستعباده إيّاها... فالذين يحبّوننا يستعبدون بعض ما فينا، بينما يستعبد الذين نحبهم كل ما فينا.. وسليم كان الاثنين معًا..

- أين كنتَ طوال هذا الوقت لماذا لم تبحث عني؟

- عكسكِ.. أنا لســت عجولًا كنت أشتهي انتظاري لك طوال هذا العمر، ألاّ تنتظر شــيئًا يعني أنَّ ما بقــي لديك من أحلام قد وُئِد، وحده الانتظار على تعسفه يجعلنا نحب كبشر، فمن لا يعرف صبر الانتظار لا يعرف كيف يحب.

لم يخطر ببال أيّ منهما أن يسأل الآخر:

- هل تُحبني؟

.. كانت الإجابة واضحة تمامًا..

- لم أتخيَّل قطّ بأنّني ســأحب يومًا هكذا بهــذه القوة.. بهذا الجمال.. وبهذا العنف..

راقصها ضاحكًا، ضمّها إليه طريَّة هشَّــة ولذيذة، قبّلَها بكل شهوة وبدون مخاوف، لم يشــعر بأنّه يخون أحدًا ولا هي شــعرت بأنّه ملك

لامرأة أخرى، حبه هزم قدرتها على التعقل، هي الصغيرة دون أب أو أمّ، ظنَّته والدها فأحبَّته بكلّ غرائزها المنتبهة، إحساسها بأنّها معشوقة حدَّ الثمالة ضبَّب رؤيتها.

وقفت إلى جانبه في مطبخ زوجته وهو يحضِّر الغداء فهي ضيفته، رائحة جسدها الطريّ شوّشت على إشارات إرساله.. بالأصل وجودها كان يشكّل إرباكا عظيما له.

– سوف أغيّر ملابسي وأعود لا أشعر بأنّني مرتاحة بملابس العمل.

– ادخلي أوّل غرفة ولا تتأخري عليّ صغيرتي.

لبِست بيجامة ورديَّة اللون بقميص مزرَّر يتوسَّطه وجه دبدوب ضاحك جميل على صدرها وبسروال قصير مجيّب، سرّحت جدائل الحرير ووضعت عطرًا جاءها رجُلها به ترشُّ به صغرها فيعرفها من بين النساء..

قبل أن تخرج مرَّرت نظرها على غرفتها وأبدت لنفسها غيرتها من ملآتها البيضاء.

– إنّها بيضاء نظيفة ألا يستخدمانها؟.. تمنّت بصوت غير مسموع..

– تبدين مذهلة أيّتها الحبيبة.. يا دبدوبتي الصغيرة..

– لماذا لم تنتظر خروجي إليك؟

– ما انتظرته لحدّ الآن يكفيني.

تضحك ويشـــتعل هو، تجري نحوه وتصل بـــه الرغبة إلى أقصاها، تَقذِف بكلِّها عليه فيحملها ويلعب معها.

– أنتِ أجمل ما حصل لي في حياتي، لقد جعلتِني أسعد رجل في العالم بمبادلتي حبي لكِ حبًّا أكبر، طالما أردت أن أُحِب وأُحَب وأنتِ كنتِ منقذتي، كم أحبك أيَّتها الحبيبة..

ينغمس في شفتيها يُقبِّلها؛ يلعق ما بقي من لعاب على لسانها يمتصّ كلّ أنفاسها يريدها له وهي لم تُرِد إلَّا أن تكون له..

– ليت العشق يعطينا فرصة البقاء معًا إلى الأبد.

– صدّقيني صغيرتي نحن معا إلى الأبد لا تخافي.

يشتمُّ عطر مساماتها، يبتلعه، يلتقطه ويغلق عليه داخل صدره، يفتح الأزرار التي تفصل بينه وبين النعيم، تتلوّى أنثاه من اللذة، يشـــتعل أكثر ويضرم فيها ناره، الآن هي ببياضها الناصع بين يديه فوق فراش زوجته.

– كم أحبكَ سيّد الرجال..

– كم أعشقكِ صغيرتي..

تلامس وجهه تتأكَّد بأنَّ لديه أنفًا وفمًا.. شـفاه وأسـنان، تلثمها.. تتأكَّد.. إنّه موجود حقًّا، هذا العنقاء لم ينقرض بعد..

بياض سـاقيها المشـدودتين بأوتار الماضي العتيق يزيد من اللهيب، تلبس الشهوة وترمي بنفسها على صدره الرحب، شعره الأبيض يغزو يدها أينما وضعتها وهذا أكثر ما كان يثيرها..

نشـوة العشـق الممنوع تزيد لذّتها والعنقاء يزيـد حبها.. كيف لهما أن يتوقفا عن ممارسـة الشـوق الدفين؟ كيف يوقفها؟ وكيف تزيده اشتعالا؟

ألقت بجسـدها الشهيّ فوقه، تحسّسـت صدره بوجنتها، ضغطت على خصره بباطن سـاقَيْها الناعمتين جدًّا ولفّت ذراعيها حوله فبديا وكأنَّهما قرد يضمّ والده مستلقيا..

.. كاد يأكلها بعينيه ويديه وقبلاته، كلّما زادت شهوته زاد التصاقها.. إلهي.. كم هي رائعة.. سليم تكاد تتوفّاه الشهوة..

زوَّجتُك نفسي ردَّت على طلبه زوِّجيني نفسكِ..

بين ذراعي صغيرته عرّى صوته على روعته شاديا.. أحبك.. يا أمي الصغيرة.. عرى عينيه ليبصرها سيّدة نسـاء الدنيا.. أحبك.. يا أمِّي الصغيرة.. عرَّى قلبه ليتوِّجهـا محضيَّة قصره الرخاميّ، صرير مفتاح غرفتها يستفز رجولته.. قادمًا إليها.. همساته الصارخة تدوّي أرجاء

قصره الرخاميّ.. أحبك.. يا أمّي الصغيرة.. هامسًا.. لعله يشتهي أن يتكلم هامسًا عندما يتكلم عن الحب..!

أغرقت رأســها بصدره وضمّته عاريًا هو الذي لم يره أحد عاريًا إلا أمه وأمه الصغيرة..

.. متعبًا يروي لها إجابة منــه لفضولها حكايات عن أيام الذبح التي عاشتها دون أن تحياها تماما.

بخوف توسّدت صدره وكوّرت جسدها الصغير بين ذراعيه عارية إلا من قولها لنفســها هي التي تخاف رؤية ســكين، هي التي هربت هجيرة وتركت للعار أن يُبقيها صغيرة.. هي التي مات رياض وتركها تئن بللها صغيرة.. هي التي مازالت باسقة في بيت ريفيّ صغيرة تخاف الموت:

- كم ســيكون الموت جميلا لــو أن حبيبي يقتلني بيديه، أقســم أنّي سأستسلم له، سأكتب بدمي.. إنّي ملك لهذا الرجل فدعوه يمتصُّ منّي كلّ حياة..

وكم كانت الحياة مستجيبة لأمانيها ذلك اليوم..

***

- أنا حامل يا أيّتها السماء.. يا للعار.. إلهي.. أنا حامل..

وضعت اختبار الحمل الإيجابي فوق الطاولة مقابل الفراش وجلست تنظر إليه.

- أنا أحمل حياة بداخلي.. يا للعـــار.. أنا حامل.. ماذا أفعل؟ أبي على حق نحن بنات العار.. أنا بنت العار واليوم أحمل عارا في رحمي..

اتصلت بحبيبها وأعطته موعدا.. ومن حســـن الحظ أن الابتسامات لا ترى عبر الهاتف ولا الدموع أيضا..

خرجت منذهلة بنفسها.. سارت في طريقها المظلم الذي كلَّما أظلم عليها مشت فيه..

قادها الخوف إلى حبيبها ممســـكة بإيجابيّة الاختبار تجري إليه، عندما وصلت لم يكن يفصلها عنه إلا باب..

انتظرت دورها متلبّسة بعارها..

إنّه حبيب العمر، إنّه الرجل، إنّه العنقاء هو من أنقذ قلبها من الموت.. إنّه هو.. رفيق القلب.. إنّه سليم الرجل الذي أحبته هذه الحمقاء من أوّل نظرة.

ارتمـــت بأحضانه أولا كعادتها وضمّها بكلّ مـــا أوتي من حب، ثم لاحظ دموعها:

– ما بها حلوتي؟ لماذا تبكين؟

لم يكن للأمر أن يكون أسوء وليس لها أن تجعله أخف، فقالت وهي بين أحضانه:

– حبيبي..! أنا حامل..

– ماذا تقولين؟

– أنا حامل.

لم يهتـــز كما عرفته دائما بل أبعد جســـدها الصغير قليلا عن جســـده لتكون في دائرة نظره يريد أن يفهم تماما ما يحصل:

– حسنا أخبريني ماذا يحصل؟ أريد أن أفهم من البداية!!

– ها هو اختبار الحمل، إنّه إيجابيّ أجريته صباحا.

واصل ممارســـة رجولته فلم يُبدِ أيّ غضب بل اســـتمر هادئا.. أخذ منها أداة الاختبار وتمعّن بها وكأنّه سيكتشف أمرا ما.

– ماذا الآن؟ ماذا ســـنفعل؟.. قالت ذلك بعد أن أسندت ظهرها إلى حافة الباب.

- يجب أن نتأكد أولا، عليك أن تجري اختبارا للدم.

- أيمكن أن يكون هذا خاطئا؟

- نعم.. ولكن مهما كانت النتيجة.. ضمّها إليه وأبعدها عن الحافة.. لا تخافي صغيرتي فأنا هنا معك.

.. تحاليل دمها لم تُكذّب الاختبار بل أكّدته.. وليس لها أن تنكر الآن شيئا فهي ابنة العار الصغيرة لأنّ دماء خالتي هجيرة تنهش عروقها..

منذ صغرها وهي صغيرة.. منذ سمعت عمي عمار ينادي: يا الله لقد ألحقت الأنثى بي العار، مذ سألتها ابنة الجيران زميلة المدرسة عندما أزعجها ضحك الصغيرة وحركتها المستمرة: ألا تضحكون في منزلكم؟ مازالت صغيرة منذ مات رياض، مازالت صغيرة منذ تركت أمها قبل خروجها للمدرسة آخر مرة، مازالت صغيرة منذ صارت ثقافة العيب أشدّ من ثقافة الحرام، مازالت صغيرة منذ صرنا قومًا نخاف الخلق أكثر من خوفنا من الخالق، مازالت صغيرة منذ هاجر والدها إلى الجبال، مازالت صغيرة منذ أحنى العار أعناقهم أمام كل الناس.. فللعار قدرة عجيبة على تحقير كل ما دونه.. هذا المجرم المتزايد براءة..

منذ صغرها مازالت صغيرة.. مذ سمعت سليم يقول أوّل مرّة: أحبك يا أمّي الصغيرة..

– ما هو الحلّ أيّها الحبيب ماذا سنفعل الآن؟

– دعيني أفكّر قليلا وأبحث في الأمر فلابدّ من وجود حلّ ما!

– ماذا تعني، ألن نتزوج لا يوجد لدينا سبب أكبر ولا أهمّ من هذا؟

نظر إليها ممعنا النظر إلى عينيها:

– لا أريد أن أحصل عليك بهذه الطريقة حبُّوبتي.

– هل هذا هو السبب الحقيقي؟

– طبعًا أليس لديك ثقة بي؟

– بلى شقيقَ القلب.. بلى..

تردّد قليلا ثم قال:

– أتدرين أنا لســت خائفًا من الفضيحة ولا من انتشــار الخبر وسط الناس، أنا خائف من غضب الله علينا لأنّ هذا المشكل حتمًا له حلّ ما.. ولكن كيف نضمن مغفرة الله لنا؟

قرآنٌ هذا الذي يتلوه على مســامعها، ولكنّها لم تقوَ على التوقف عن التفكير في الأسوء:

– أنتَ على حقّ حبيبي، ولكن ماذا لو استمرّ الحمل للأخير؟ ماذا لو لم تنجح في إجهاضي؟

– أنا أحبك جدًّا وهذا لن يكون مشــكلًا إن اســتمر الحمل ســوف نتزوج صغيرتي.

لم تَفهَــم كيف أنّ قلبها يقرأ كلامه: « عليّ التخلص منك بأيّ طريقة كانت» فردّت:

– أقسمت عليك ألّا تنسى يومًا.. حبّي.. أقسمت عليك ألا تُفرِغ عليّ يومًا عالمي.. أقســمت عليك أن تحبني دوما، أن تهبني كلّ ما فيك، أرجوك ألّا تبتعد.. أنا أرجــوك ألّا تفعل لأنّني لم أكن امرأة قبلك ولن أكون من دونك.. لن أعود أنثى وأنت بعيد عني، لن أبقى على قيد الطمأنينة وأنت بعيد عني.. حبيبي أنا أرجوك ألا تبتعد..

حــب هذا الرجــل محفور على وجههــا وعلى كلّ بقعــة صالحة في جســدها، كذلك الدرب الخلفي المشــقوق بدموعهــا والذي صار مطروقا أكثر بمقدار مرّات بكائها، فبالتكرار تحفر قطرة الماء الأرض وليس بالعنف، وهي تطوي هذا الدرب الخلفيّ المقابل لباب العيادة بعيــدًا عن باب محلّ الكعك باتجاه شــقيق القلب كلّ يوم بدموعها.. بحبها.. بإصرارها على إرضاء نفســها بإلقاء جوفها المتخم وجعًا بين ذراعي سليم..

– هل وصلك الدواء؟

– « سـيتوتاك» « CYTOTEC» هـذا هو الدواء الذي سـيخلصنا من مشـكلتنا الكبـيرة، أحضرتُ لكِ عشريـن حبّة سـتكون كافية لإجهاضكِ.

.. في الحقيقة عشرون حبَّـة كانت كافية لإجهاض فيلة كبيرة وليس امرأة صغيرة!!!

– هيا الآن خذي الدواء وحافظي عليه جيّدا فهو غال ونادر ولا يباع إلّا في السوق السوداء.

– كيف حصلت عليه إذن؟

– تمزحين! أنا طبيب وهذه الألاعيب في متناولي.

أخذت منه ورقة ملفوفة على عشرة أزواج من حبّات « سـيتوتاك « وفتحتها:

– لماذا هو هكذا هذا الدواء؟ لماذا تباع كل حبتين منفصلتين لوحدهما؟ ولماذا هذا اللون الفضيّ الباهت للغلاف؟ إنّه مخيف جدّا ويبعث في النفس نفورًا.

– خبئي الدواء في المحفظة وإيّاك أن يضيع.

بالنسبة إلى قلبها فما تسمعه هو قرآن مرتّل وليس عليها إلّا أن تُنصت السمع جيّدا، لم يسألها فِكرُها يوما: ماذا تفعلين؟

فقط عنفوانها الطاعن سأل حبيب العمر على استحياء منها وكأنّه لا يحقّ لها أن تسأل بل عليها أن تطيع فقط:

– ولكنّني مازلت عذراء ألن أفقد عذريتي بهذا الدواء أو عندما ينزل الجنين؟

– كلّا لن يحصل شيء فقط أنتِ نفذّي ما أقوله لكِ حتى نتخلص من مشكلتنا الكبيرة، أليست لديكِ ثقة بي؟

– بلى شقيق القلب، كيف هو شكل الحبّة وهل حجمها كبير.

– افتحي واحدة منها لنرى.

– أنظر إنّها حبّة بيضاء صغيرة الحجم سداسيّة الشكل، أليست غريبة! أوّل مرّة أرى فيها دواء بهذا الشكل، أرجو ألّا يكون طعمها مُرّا.

– وإن كان كذلك عليك تناولها جميعًا.

– حاضر.

إنّهـــا هبة الحياة لســـليم فعلًا، فلن يجد أيّ رجـــل في العالم أغبى من الصغيرة ليتّخذها حبيبة له!!

– كيف سأعرف بأنّ العمليّة نجحت؟

– انتظري حتى إتمام الدواء وسنرى، فإن لم ينجح الأمر معك ولم ينزل

الجنين سأســافر بعد غد صباحا لأحضر لــك دواء آخر، إنّه جيّد جدّا، فيه حبّتان فقط إحداهما تُوقِف الحمل والأخرى تُنزِل الجنين.

– ما هو اسمه؟

– لا تُتعِبــي عقلك بهذه الأمور أنت فقــط ركِّزي في ما قلته، حتى لا نخسر هذه الفرصة.

– أرجو ألّا نضطر لهذا الأمر.

ضمّها إليه ومســح عن فؤادها الحزن وأســمعها ما كانت تريد أن تسمع:

– لا تحزني صغيرتي.

– أنا خائفة جدّا عزيزي! أكاد أموت من الخوف.

– وأنــا مثلكِ صغيرتي ولكن علينا أن نكــون أقوياء خاصة الآن، لا يجب أن نضعف.

– أنتَ على حق ولكنّني فقط أخاف من الفضيحة أخاف أن يبدو عليّ المرض أو أن ينفضح أمري.. آه حبيبي كم أنا خائفة.

– أنا هنا معكِ فلا تحزني.

– هل لهذا « السيتوتاك» أعراض جانبيّة؟

– إسهال فقط على ما أعلم.

.. وحرارة مرتفعة جدّا وغثيان ونزيف دمويّ حادّ على ما يُخفي!!!

في السابعة والعشرين من العمر هربت هجيرة، وها هو عيد ميلاد ابنتها الكبرى السابع والعشرون.. يا له من عار..

دمها المسكوب جراء الإجهاض أضعفها وألزمها فراش المرض، نزفت كثيرا وكان ذلك صعبا على جسدها الهزيل.

– كيف حالك صغيرتي؟ هل توقّف النزيف؟

– قليلا، أنا بخير لا تقلق عليّ، ليس الأمر سيّئا كما يقال عنه..

وقد كذبت في هذا كثيرا، لم تُرِد لرجلها أن يقلق أو يتألم، كانت أنبل من أن تشعره بالذنب..!

– أنا أتحسّن، أتوقّع بأنّني سأزوركَ قريبا.

– لا، عليك أن تنتبهي لنفسكِ جيّدا، لا تأتي إليّ.

– أرجوكَ ألّا تقول مثل هذا الكلام أنا لا حياة لي بدونكَ، أقسم لك بأنّني سأكون أحسن حالا إذا رأيتك.

هذه عاشقة وهذا الرجل الذي تعشق.. أرادت أن تكون معه أرادت أن تهتمّ به، تتأبّط ذراعه، تُظهر له الودّ كل ساعة وكل ثانية، تنظّف له

الأرض حتى لا يتسخ حذاؤه، تعمل على تدفئة سريره وإيقاد النار له، تُعِدُّ له وجبة ليليّة عند قدومه وتشـــعل فيه ما أراد أن يُحبَّها لأجله، في اليوم التالي ســـتوقضه.. ستجهّز الإفطار له.. ستصلّي خلفه وتدعو الله أن يحميه وهو خارج إلى حيث الأخرى.. أو إلى حيث عمله.. ستضمّ ســـترته وتقبّله.. ستُلبسه ســـترته.. ستقول: أحبكَ ســـليم يا حبيب العمر..

ابتلعت آهاتها تباعا فالغيرة تمزّقها ثم قالت بحنقة دفينة:

– كم الحياة غريبة، اليوم هو يوم مولدي وهو يوم قتل ابني أيضا.

انزلقت منهـــا هذه الحياة كما لو لم تكن، ها هـــو ابنها كتلة كبيرة من الدم تغطي قشرة كرة بيضويّة غير متناسقة الملمس تشبه كرة الغولف ولكنّها أصغر بقليل، تابعت بنفس الحنقة:

– أنتَ تكـــبرني بواحد وعشريـــن عامًا وواحد وعشرين ســـنتيمترًا وقبّلتني أوَّل مرَّة في الواحد والعشرين من ديســـمبر الماضي.. وأنا أجهض ابننا وعمره واحد وعشرون يومًا.. أوليســـت الحياة غريبة حقًا؟

– لا تقولي لي بأنّك نادمة الآن؟

– لا، أنا فقط أستغرب هذه الصدف وكأنّ كلّ هذا مقدّر حتمًا.

لم يستغرب كما اســتغربت ولا غضب بل استمر هادئا، غير أنّ ثمة نتيجة كانت تفرض نفســها لم تعِها الصغــيرة جيّدا ففِكرُها نائم.. أنّ إجهاض المــرأة التي جعَلَها حاملًا والمخاطــرة بحياتها بهذه الطريقة القذرة جريمة بحقّ الإنسانيّة أراد لها سليم أن تظلّ دون عقاب.. ولا عار..

لم يتوقّف عمي عمار عن كره بنتيه يوما فهما مصدر خجله الدائم، هما بنتا هجيرة.. أجل هما بنتان وتلك هي المسألة..

بعــد عودة عمي عــمار إلى البيت ثريّــا..! ووفاة أمه هــذه الجبّارة الأخرى، تزوّج وعاد بعائلته إلى مســكن خالتي هجيرة الأوّل.. هذا السرداب الآخر..

وهنا بدأت حكاية بخله فـــ «البخل يبدأ عندما ينتهي الفقر» يقول «أونوريه دي بلزاك» في ملهاته الإنسانيّة.

مصاريف الجامعة ومصاريف الأمراض المتتالية المستوحاة من الجوع أجبرت الصغيرة على العمل عند نبيل.. حبّ سليم.. لابدّ أنّ كلّ هذا كان مقدرا.. لابدّ أنّ كلّ هذا يحدث بتخطيط إلهي..

***

.. جلســت الصغيرة على مقعد قريب من ثلاجة المشروبات الغازية في المحلّ وأســندت ظهرها إليها. انتهى العمــل اليوم وغادر الجميع وعليهــا أن تفعل أيضا، عندمــا قرّرت أن ترتــاح بعض الشيء من الحمى وألم رأســها اللذان يجعلان من عملها شاقًّا.. شردت وراحت تتأمَّل هذا الموضع الــذي وضعتها الحياة فيه.. استرســلت في ذلك حــين لاحظها نبيل وهو يهمّ بغلق البــاب إذ يكون في العادة آخر من يغادر المكان، ولأنّه زير نساء موهوب فلم يكن يصحُّ أن تفوته فرصة تجريب حظّه لذلك اقترب مســتغلا شرودها ووحدتها ليقول ما أراد قوله مذ رآها أوّل مرّة..

بدأ ممازحتها وهو يخبر تعلقها بالفريق الوطني:

– مع من أوّل مباراة لنا في كأس إفريقيا بأنغولا شهر جانفي المقبل؟

– فيــما يمكن أن يعنيــك ذلك؟ أنا أعلم بأنّهم لا يعنون لك شــيئا.. وأرادت أن تكمل.. المال هو كل ما يعنيك.. والنساء..

– أسأل فقط.

– مــالاوي، يقولون بأنّها الفريق الأضعــف، فمجموعتنا تضمّ مالي وأنغولا البلد المضيف وسوف نلعب معهم بهذا الترتيب.

– وماذا تتوقعين؟

– لا أتوقع شـــيئا، منذ مباراة أم درمان لم نعد نتوقّع شـــيئا، كلّ طاقة توقعاتنـــا أهدرناها ذلك اليوم.. ربما ســـنتوقع نتائـــج مبارياتنا في مونديال البرازيل 2014 فقد نكون عندها شـــفينا من جروح كرة القدم.

يتقدّم منها خطوة ويحاول أن يلامس جرحها الناعم:

– هل أنت متأثّرة بما قاله المصريّون عن شهدائنا إلى هذه الدرجة؟

يتقدّم خطوة أخرى.. كان شـــارباه يرتعشـــان تأثرا ونظرات عينيه المستديرتين الجاحظتين تسرحان به بعيدا إلى ما وراء الثياب..

– لا تأبهي لكلامهم، كلّ ما يقولونه هو جرّاء غضبهم من الخســـارة فقط اصبري مدّة من الزمن وســـتعود الأمور إلى ما كانت عليه أو أحسن..

.. وأخرى..

– سوف يَعُون أنّهم ظلمونا يوما.

تنتبه لدنوه منها فترتبك:

– آه.. عليّ أن أعود إلى البيت لقد تأخّر الوقت كثيرا.

اختطــف يدها بسرعة فلم يتــح لها فرصة الابتعاد عنــه عندما همّ بالغزل، بينــما انتابتها رغبة البكاء فالخوف الفاخر والظلام الشــديد جعلاها وحيدة جدّا.. والوحدة والخوف والظلام يدفعونها للبكاء.

تحسّس لذة وجنتيها نزولا وقال:

- أنتِ الفتاة ال..

دغدغ بشفتيه هواء رِئتيها الخارج من فمها وتأوّه من سيطرة شهوته الجنسيّة على ساقيه الواهنتين، وقال:

- .. التي.. التي كنت...

اصبعــه القذر ينزلق على فتحة قميصهــا ويكاد يلامس بياض الجنة منتشيا:

- ما أجملكِ يا صغيرة..!

- نبيل هل غادرت؟ أنا هنا لا تغادر قبل أنْ تأخذني معكَ.

.. صوت قادم من الطابق العلوي..

نشــوته المنخذلة سبّبت له رعشــة خانقة وخطوات مُدبِرة غاضبة، سوف يدفع ثمنها صاحب الصوت حتمًا.

.. أفلت يدها.. ســحب اصبعه.. وهرول بعيدا في ســكون، عندما نزلت نبيلة من الطابق العلويّ ونار كلّ الآهات تشــتعل بعينيها، هي

التي دفعت عشرين سنة من عمرها ثمنا للعنة الحب الخاسر، كانت نبيلة تستمع لكلامهما ولكنها لم تُرِد أن تتدخّل بضراوة فنبيل صديق أخيها وجارها ورب عملها و... والحب القديم..

كل شيء حدث بسرعة، وقفت الصغيرة متفرّجة على هروب نبيل تستمع إلى دقّات قلبها، لم تصدّق بأنّ هذا حدث فعلا، كيف تجرّأ هذا الوغد على فعل ذلك؟ لقد كاد.. كاد..

هل ستدين لنبيلة بإنقاذها من نبيل أو أنّ العاشقة ستنتقم منها؟

- ماذا أفعل يا ربّ السماوات و الأرض؟.. تساءلت بخوف حزين.. لماذا يحصل هذا معي؟ أنا أرجوك ربّي هذا مصدر رزقي الوحيد فلا تتركني لعراء الحاجة المُذِلّة مجدّدا والتخرّجُ على الأبواب.. أرجوك يا ربّ..

لم تكن بالإيمان الكافي الذي يجعل فِكرَها يقول: لا تقنطي من رَوْح الله..

عندما كان الصباح التالي بدا لها أن تذهب للعمل وأن تنسى ما حصل لأنّ مصاريف الجامعة لا تنتظر ولا الأمراض أيضا، فيبدو أن الشتاء القسنطينيّ البارد وقلّة الأكل وكثرة العمل ونزيف شهرين كاملين أثّرا على صحّتها كثيرا.. والخدر الذي كان يصيب النصف الأيسر لوجهها بين فترة وأخرى أصبح الآن يلحق بيدها على طول الذراع

وإلى أعـــلى رقبتها وحتى رأســـها، وأذنها اليـــسرى، وعينها اليسرى، وشفتيها بنصفهما الأيسر، ونصف أنفها الأيسر.. وهذا غريب حتمًا..

لم تُرِد أنْ يعلم شـــيخ المحبين بأنّها مريضة ولهذا طلبت إذنا من نبيل الـــذي تجنّبته قدر الإمـــكان يومها، وغادرت المـــكان باكرا إلى المركز الطبي الذي يتوســـط المدينة لتُجري كما طلب منها طبيب الأمراض الباطنيّـــة تقنية الأشـــعة المقطعيّة لعينيها من أجـــل قياس مدى ترقّق الغشاء الخلفيّ لشبكة العين..

– هل من أخبار؟ هل طلبتِ من حبيبك أن يداويك؟

– هل تمزحـــين أتتوقّعين منّي أن أطلب منه مـــداواتي؟ ثم هو جرّاح أسنان لا أظنّه يفهم بأمراض أخرى..

تفكّر قليلا:

– رغم أنّ ذلـــك يغريني، كما أظنّه يعلم مرضي لأنّه طلب منّي عندما سلّمته نتيجة فحص العينين تركها ليقرأها جيّدا.

– لماذا لا تطلبين منه إذا؟

– أنا لا أريد أن يعتقد بأنّني دائمة المرض.

– مـــن قال ذلك؟ أنت فقط متعبة من العمل والدراســـة، قولي كلاما آخر، ظننتك تخشين أن يَظُنّك استغلاليّة.

- لا تقلقـــي صديقتي فأنا لم ولن أختبر مضرّة أن أســـاويه في الإنفاق ولن أســـمح له بأن يتفاضل عليّ غنى، كلّ ما أفعله أنّني أســـترعي هيامه بي وأســـاويه بجيوبي، فلا المال ولا النفـــوذ يعنياننني، كلّ ما أريده هو حب يعيش طويـــلًا.. بل أبدًا.. لأنّ الحب الذي كتب له أن ينتهي بسبب الفوارق الماديّة لم يكن يومًا حبا حقيقيّا.

- لا تنسي أنّ العلاقات المبنيَّة عـــلى رفاهية الحياة أكثر من تلك المبنيّة على رفاهية الحب، فدائما ما تحول الفوارق الماديّة بين المحبين.

- لأكـــون بين ذراعيه ســـألغي علاقتي بـــكلّ ما له علاقـــة بفخامة المعاملات، هل تحـــول الرفاهية بيني وبينه؟ مـــا جدواها إذن؟ لا رعى الله مالاً يحول بيني وبين طائري الأسطوري.

- لا أعرف كيف ترينه طائرا أســـطوريّا؟ أنا مازلـــت مصرّة أنّه ينقِذُ بعمـــركِ بقيّة حياته، يحـــاول أن يُفلت من إعاقة ســـبّبها له حادثٌ روتينـــيّ لزواجه، يعـــوّض بحبك ما ينقصه، إنّـــه يريد إنحناءات جســـدك الغضّ الطريّ، حيويتّك، عفويتّك، جنونك، ضحكتك، مرحـــك، جريتك، قفزتك، دموعك، حزنك، شـــغفك.. كلّ كلّ أحاسيســـكِ.. فزوجته ما عاد لها أحاسيس، ســـوف يمتصّك ثم يرميك.. ســـيأخذ جرعة حياة منك ثم يمضي ليمتصّ حياةً أخرى من صغيرةٍ أخرى.. هو بالنســـبة لك كلّ شيء ولكنّك مجرّد عاشقة فقيرة بالنســـبة له، سَـــيمنّ عليـــك بما هو ممكـــن، مادمت ترضين

غرائزه.. يوم يدقّ جرس الملل بشهوته سيقول لك كفى.. وسوف تدفعين الثمن.

كلّ الحقيقة في كلام دنيا ولكن الصغيرة لم تصدقها، فالحب كما يظهر أصابها ببعد نظر.. بالأصل هي تحتاج حبها لسليم حتى تستمر في عالم الأحياء.. حبها له هو إشـــباعٌ لملائكيّة روحها وجسدها الصغير، هو حبها للرقيّ.. هو عشقها للتّسامي.. للتّخلص من دناسة عار هجيرة..

***

عندمـــا تكون الحبيبة مـــع رجلها تهمل كلّ ســـاعات الكون، تفقد إحساســـها بالعالم الخارجي، تتجاهل هاتفها تغلق على نفسها وتنسى عمي عمار.. سليم هو مركز حياتها هو ميزان سعادتها، قربه هو الهناء كله وبعده عنها هو الشقاء كله..

- لم أفهـــم قبلك معنى كلمة أحبك، حبك يهوّن عليّ أحزاني، أشـــعر بأنّك تعطينـــي الكثير من القوة فلم تعد الدنيا قادرة على زعزعتي، جبروت وجودنا معا يتسرّب بين أضلعي ويسري فيّ.

تســـتيقظ كلّ يوم بهدف واحد في رأسها هو أن تحبه أكثر وأن تثير فيه الإعجاب..

في الصباح الباكر قبل ذهاب الصغيرة إلى العمل تمرّ على عيادة شيخ المحبّين، تُقرؤه الســـلام بنوع آخر من أنواع الخشوع.. الحب.. تُسلّم على نور العمر وتشكر الله شكرا طيّبا مباركا فيه على نعمته..

.. يتبادلان الإشتياق بعباراته المأساويّة طويلا، وهكذا يكون قد بدأ نهارها..

هي تحب ســـليم فصار كل الدنيا وكل الخلق بالنسبة لها، صدرها لم يعد يتّسع للأمور الجميلة التي تحدث بداخله.. ليس أجمل من الحب.. ولا أنبل.. لا تريد أن تحصل على شيء ســـواه، تلـــوّن الكون بعينيها

منـــذ عرفته بلون آخر، ليس لونا نعرفه ولكنّه مختلف، ليس ورديّا ولا بنفســـجيّا، ليس أزرق ولا أحمر بل لون آخر مضيء.. لون ســـعيد.. مبتسم.. يزيد ابتســـامة عينيها إشراقًا.. يلوّن حياتها يزرع فيها أزهارا بألوان مختلفة ليست تعتادها..

حب سليم زادها بهاء وأنوثة، زوّدها بقوة غريبة تحميها من برد الزمن طالما هي على قيد الحـــب.. حبه المجنون في جنونه الكبير جعلها تقوم بأمـــور لا تعي عواقبها وأحيانا هي كانـــت تعيها وتتجاهلها، فالحب المجنون يستصغر الأمور ويهوّنها، يُسيطر على حياتها، يَملأها، يَضيق بها، يُدحرجها، يَرسُمها، يَبنيها.. يُؤسّس لبنائها، الحب المجنون صوّر لها حبيب العمر مثاليّـــا.. رائعا.. جميلا.. مذهلا.. حكيما.. مُتلبِّسًـــا بجنون التواضع.. ما أروعه من حبيب..!

.. كلماته البسيطة يقرؤها عقلها المشوب بالجنون تراتيلا مقدسة، تَراهُ خارقًا للعشق وعليها أن تكون خارقة للأنوثة لتلامس روعته..

الحـــب المجنون في جنونه الكبير يُريها ســـليم عظيمًا رغم كل عيوبه، رغم تواضع شكله، رغم بروده، رغم كذبه، رغم اختبائه وراء مئزره الأبيض ليمارس خيانة هي بالأصل في متناول القذرين وحدهم، رغم قلّة احترامه آلامها أثناء النزف عندما كان يمارس عليها شـــهواته أيّام الدم، رغم ضعفه أمام أوّل اختبار وضعته الحياة فيه، رغم اســـتقوائه

الواضح بنقوده، رغم نتانتــه الممزوجة بوقاحة أعذاره حين قال: «لا نســتطيع الخروج معا إلى العلن، لا يمكننا العيش في الضوء، العيادة عشّــنا المستور..» رغم كل شيء جعله الحب المجنون في جنونه الكبير حبيب العمر ورفيق القلب، هو الوحيد الذي يستطيع أن يصل بها إلى قمّة الحب، هو الوحيد الذي تأمنه على نفســها وهي تحذو خطواته في أروقة العشق، هو الوحيد الذي تحبه حبّا مجنونا في جنونه الكبير.. هو وحده دون سواه.. للمرة الأولى في حياتها..

ســليم طبيب أسنان بلغ الثامنة والأربعين من العمر، ولكنّه يبدو في أواخــر الثلاثين بوجهه العريض المتورّد ترفًا، وأنفه المســتدقّ المرفّه، وصلعته الناعمة الساطعة المدلّلة تبرق من كثرة النقود التي تجعل من كل شيء حولها جميلا.

في الغد يوم جديد، يلتقيان صباحا فيســتقبلها يســلّم عليها بشفتيه الدقيقتين اللتان كلّما ضمّهما إلى بعضهما زرع في نفس صغيرته دون أن يدري ذلك الشعور المألوف.. يسأل عن حالها بالنوع ذاته للخشوع.. الحب..

– أحلام أين أختك؟ لم تعد بعد؟

– لابدّ أنّها على وصول.

– إنْ عاد أبوك قبلها قتلنا جميعا بجرمها.

مِــن نكد الأيام أنّها تأخرت في الوصول ليلة رأس الســنة الميلاديّة، فالجماهير القســنطينيّة مصطفّة أمام باب أشهر محلّ للكعك في المدينة لــشراء كعكة الميلاد، والعمــل متراكم وخروجها باكــرا يعني إلغاء اتفاقيّة الفقر، وكان عليها أن تفكــر مليّا فإمّا نار عمي عمار أو جهنم السي نبيل..

« في كلّ مــكان وزمــان تفعل المــرأة الجميلة ما تريــد» يقول مثل إنجليزي.. ورغم أنّها لم تكن فائقة الجمال لكن جمال روحها وحلاوتها تجعل الرجال يمعنون النظر في روعتها..

دخلت الحــمام بعد أن راوغت نبيلة التي لم يكــن لديها ما تفعله مذ عرفت بحب نبيل للصغيرة ســوى تعكــير حياتها، وضعت ماكياجا ليليّــا، نزعت قميصها الطويــل المتدلّي على أجمل وركــين في المدينة، أخذت نفســا طويــلا.. واتّجهت نحو مكتب سي نبيــل، طالما كانت تناديه عمي نبيل ولكنّها اليوم:

- نبيل أريد أن أحدّثك قليلا.

- ألا ترين هؤلاء الناس لماذا أنت هنا؟ اذهبي إلى الخِدمة.

قال ذلــك دون أن يرفع عينيه عن آلته الحاســبة، فيومَيْ عيد الفطر ورأس السنة الميلاديّة هما الأكثر درًا للأموال.

- نبيل أرجوك اسمعني.

رفع إليها عينيه وامتصّ لعابه المسكوب العالق بشاربيه فور التقاطه عطرها:

– أهــذا عطرك؟.. وقف من وراء مكتبه ونظر إليها نظرة يقشــعرّ لها بدن كلّ إنسان طاهر نبيل.. والصغيرة لم تكن كذلك لحظتها..

– هل أعجبك؟.. قالتها بدلال خبيث دون أن تتحرك من مكانها.

اقترب منها محركا أسفل ظهره إلى الأمام هذا الذكر:

– رائحتكِ مدهشة.

– نبيل.. تناديه بحنان غامر.. لقد اتصلوا بي من البيت عليّ أن أغادر.

كمن لم يســمع ما قالته أو ربما تجاهله، ينظر إليهــا بعينيه الضيّقتين اللتان تبرقان بما هما مؤهلتان له من شحّ وحب للنساء ويضيف:

– .. يهزّ المشــاعر.. يقترب خطوة بعد.. ويثــير في نفسي رغبة قويّة.. أنتِ.. أنتِ رائعة.

– غدًا سأعوّض عمل اليوم أنا أعدك.

– أُحسّ بمغناطيس يجذبني إليكِ، لا تذهبي.

– في الغد.. « غدا يوم آخــر».. غدا نتحدث الآن عليّ المغادرة وإن لم أفعل فلن تراني مرّة أخرى.

سحبت يديها من بين يديه بهدوء يوحي بأنّها ستفعل أمرا آخر أكثر جرأة فأطلق الزير يديها منتظرا أن تضمّه مثلا..!

مأخوذا بعطرها وفتنتها ظلّ واقفا يتفرّج عليها تغادر دون أن يعي ذلك تماما.

جَرَت نحو المخرج تنشد حريّتها، مسرعة أمام أنظار العمال الذين لم يعيروها أيّ انتباه كأنّهم لا يرون شيئا يحدث أمامهم.. تشعر عند رؤيتهم وكأنّك اكتشفت جزيرة صغيرة لأناس مستعبدين لدى نبيل، وهم يعيشون في اكتفاء ذاتيّ بعيدا عن الضجّة التي تحدث خارجًا والتي هم سبب حدوثها، دون أن يقدم ذلك شيئا أو يؤخّر بالنسبة لهم.

نبيلة لم تكن من ذوي الاكتفاء الذاتيّ، هي كانت من المستضعفين في الحب، رمقت الصغيرة بتلك النظرة التي تبعث فيك الشعور المألوف.. كادت تنفجر فكيف تغادر هذه الأفعى.. هكذا.. بينما تبقى هي تعمل إلى الليل، لم تعلم بأنّ الأفعى الصغيرة راحلة إلى عمي عمار، أين ستدفع ثمنا مضاعفا لاتفاقيّة الفقر.

– أين كنت؟

– في العمل.

– أيّ عمل هذا الذي تبقون فيه إلى هذا الوقت؟

– اليوم هو رأس السنة الميلاديّة.. بينما كانت تريد أن تقول: إن كنتَ تخاف عليّ من رجال خبيثين، فلا ينبغي عليّ مغادرة المنزل لأعثر على واحد.

– أيّ سنة ميلاديّة هذه التي تتكلمين عنها ونحن مسلمون؟ ما بكِ؟ لماذا أعطاني الله ابنة مثلك؟.. وأمطرها ضربًا.. أنت قرد ممسوخ.. لم تكن تعلم بأنّها كذلك إلى أن قالها لها.. أنتِ عار.. أنتِ ماجنة.. أنتِ قرد ممسوخ.. أنتِ عار.. أنتِ لست ابنتي أنا غاضب عليك ولن تنجحي في حياتك أبدًا.. أنتِ عار.. أنتنّ عار..

لم تتدخّل زوجة عمي عمار ولم تتحرك من مكانها، فإضافة إلى أنّ أمر الفتاة لا يهمّها فالصراع الروتينيّ بين الرجل وصغيرته الكبرى، هو صراع انشطاري بين شخصين أضاعا نفسيهما ذات أزمة أمنيّة وليس لأحد أن يصلح شيئا بينهما.

لقد أحبّته ذات يوم كما لم يُحب ولد والده، وكان يحبها رغم مشاعره الغامضة تجاه كل البشر، هو فعلا بينه وبين نفسه كان يحب صغيرته الكبرى قليلا.. واليوم هما ضائعان لا أحد منهما يعلم متى نسي كلّ واحد حبه للآخر واستبدله كرهًا واحتقارًا.

لم تستطع الدفاع عن نفسها بأيّ طريقة كانت، وكلّ ما كان في وسعها هو تغطية وجهها من كدمات.. هاربة من زمن ما، هي التي سمحت

لنفسها بالسعادة متجاهلة حدود إمبراطوريّة والدها في فترة كان لابدّ أن يكون جفاف القلوب فيها هو سيّد الجميع، فالسعادة اليوم بالنسبة لعمي عمار عار.. واكتساب النقود أيضا..

الفقــر هو الشرف.. الحاجة هي الشرف.. الانكســار هو الشرف.. الجهل هــو الشرف.. الذلّ هو الشرف.. مدّ اليد هو الشرف.. المعاناة هــي الشرف.. القبــح هو الــشرف.. التألّم الصامــت المكتوف هو الشرف.. السكوت على الظروف المحنية للظّهر هو الشرف.. القبول بالمهانة هو الشرف.. المكــوث في اللامعرفة هو الشرف.. القعود عن الحياة هو الشرف.. الغباء هو الشرف.. والعار هو أنثى تقول لا لكل ذلك..

.. شَــابَ الأيام الموالية هدوء حذر من الطرفين، أفرغ الأب شحنة غضب ســاخطة على كل ما حدث له يوما، أفرغ شحنته كعادته على سبب تعاسته الوهمي.. عاره.. وعاد إلى الحياة التي استمرت برتابتها في انتظار شحنة أخرى..

بينما مرّت هذه الليلة بســلام، وحتما لن تلغى اتفاقيّة الفقر وهذا كلّ ما كان يعنيها..

***

جلســت مأخوذة باشــتياقها لعينيه بين يديه، تُمنّي شــفتيها بقبلتِه وتتوعَّــد كلَّها أنْ ينصاع لإغراءات رجولته فيفضح انهيار أنوثتها.. لم تســتفق بعد من هدير انفضاحها به حتى اندلعت المباراة الربع نهائيّة لكأس أمم إفريقيا بين «الجزائر» و«كــوت ديفوار» وهذه المباراة هي الحدث الجلل، توسّدت ذراعيّ حبيبها وأقبلت تمتّع هوسها بالرياضة عبر إمعانها في لعب المنتخب..

لسليم في عيادته تلفاز كبير ضخم ليس موجودا في المنزل الافتراضيّ، لديــه في عيادته فراش بنيّ، وســادة عديدة ألوانهــا؛ لونها الأكثر هو البرتقالي، صحون وملاعق وســكّين، مشط شعرها الجميل.. وحنانه الأبويّ الرجوليّ الأنثويّ الغامر..

ســليم هو عمي عمار.. ســليم هو خالتي هجيرة.. هــو أحلام.. دنيا.. رياض.. هــو خليط بين الأب والأم والأخــت والخال.. هو أعز الأصدقاء.. هــو المنتخب الوطني.. صمام أمانهــا.. منقذها من بين الرجال.. هو كل الأفراح وهــو أيضا كل الأحزان.. هو الحبيب المعجزة.. هو الجرّاح المعجزة.. ســليم هو كل الناس، هو كل شيء في أيّ شيء.. هو رجل ناضج وهذا هو الأهم بالنسبة لصدرها اليتيم..

وجدها حزينة فأســعدها، وجدها عارية فألبســها، وجدها هائمة

فأرشـــدها، وجدها وحيدة فآنســـها، وجدها محنية الـــرأس والظهر فأعالها، وجدها ميتة ذات ثامن عشر مـــن نوفمبر فأحياها.. وجدها صغيرة وها هو يربّيها..

– لم تبق إلا دقائق ثلاث وتنتهي المباراة نحن خاسرون بهدفين لهدف، لماذا لا يلعبون بشكل جيد إنّهم..

قاطعها مهدّئًا:

– انتظري حتى نهاية المباراة ثم حاكميهم، بالنهاية هذه مجرّد لعبة.

– أنا لا أحاكم أحدًا فقط أنا غاضبة من طريقة لعبهم.

– عندما نحب شـــخصًا فنحن نحكم عليه دائمًا بقســـوة، نحن نتوقّع منه أن يكون الأفضل طوال الوقت وليس في وســـعنا مسامحته لأنّه لم يكن.

– كيف لهذا أن يكون صحيحًا؟ نحن نحب لنرأف.

– هذا ما يُهيَّؤ للجميع، نحن لا نقسو حقًّا إلّا إذا أحببنا..

– أتعني أنّني قاسية مع المنتخب الوطنيّ لأنّني أحبه بهوس؟

– تمامًا.. إنْ لم تحبيه فلا شيء من خساراته سيعنيك...

« الله أكبر يفعلها الرجال، سنتأهل من دون شك لأنّ الذي يعود في هذه اللحظات لابد أن يفوز ويتأهل.. حتى لو خسرنا الآن نعم نعتزّ ونفتخر بكم.. وتعود الجزائر التي لن تسقط أبدًا..». **حفيظ دراجي**.

.. أبدًا..

– انتهت المباراة وفزنا كما كنت تحلمين عودي الآن للبيت وغدا أريد منكِ أن تأتي إلى العيادة لأراك، أريد أن أعرف ما خطبكِ!..

– ماذا تعني؟ ولكن كيف عرفت؟

– حرارتكِ المرتفعة دائما تقلقني.

– ولكنّني...

– ليس هذا الوقت المناسب للعناد، سوف أنتظرك بعد العمل إيّاك أنْ تغيبي.

– ولكنّك متخصّص بجراحة الأسنان فقط فكيف قد تتمكن من معرفة مرضي؟

– لا أعلم لماذا تحبّين إكثار الكلام.. قلتُ تعالي أليست لديك ثقة بي؟

في المساء التالي كانت واقفة أمام الباب كتلة براءة صغيرة مرتعشة خجلة.. جميلة كأجمل ما تكون الصغيرات.. أليس الحب ما يجعلنا رائعين؟

عندما كان يقيس حرارتها اســتحت، وعندما غرقت يده في بحرها البنــي الأملس الامع الحريريّ ابتســمت، إنّهما عاشــقان ولم يملكا نفسيهما عن بعضهما ســاعة اللقاء فتلك الشهقة تسيطر عليها وذلك الشغف العظيم يهرب به إلى الأمام.

– لماذا لم تنتظرني حبيبي؟

– أنتِ من تأخر عليَّ كثيرا.. آه كم أحبكِ.. آه كم أنا عاشــق لكِ.. آه صغيرتي..

– ألا يمكن أن يكون شــعورك هذا مجرّد نزوة؟ ألا يعقل أنْ تنســاني ذات يوم؟

– ماذا تقولين؟ أنا لست شابًا أرعن بل رجل « ناضج في كل شيء» أنا أعلم جيّدا ما أفعل.

– ســمعت كثيرا عن عودة الرجال الذين في سنك إلى مرحلة المراهقة ألا يمكن أن يكون هذا صحيحًا؟

– إنّها معلومة خاطئة صغيرتي وهذا ليس صحيحا إطلاقًا، لقد اطّلعتُ على الأمر من صديق لي هو عالم نفسيّ، شرح لي جيّدا بأنّ الرجل عند بلوغه ســنّ الأربعين وحتى الخمسين ينضج جنسيّا وعقليّا فيعيش ليبحث عن النوعيّة في علاقاته وليس عن الكميّة، عكس ما يعتقده البعض مخطئين عن أن الرجل يصبح مراهقا ومن هذا الكلام.

– أنا أثق بك حقّا لقد أرحتني.

– بما أنّك ارتحت الآن أيمكنني أن أحصل على قبلة؟

تدفعه مبتسمة رغم شوقها لذلك:

– ليس قبل أن تقول بأنّك تحبني.

هو يقول لها أحبك ويفعلها ويغنّيها ويرقصها ويمارسها ويلعبها ويشتهيها ويضرم فيها شفتيه معًا..

– أحبك.. بالفرنسيّة.. «Je t'aime».

– وأنا أحبك بقدر حبّي للحياة أحبك دائمًا بنفس القدر بل وأكثر، أحبك أكثر ممّا تحبني فهذا واجبي أمام الحب.

استسلمت لشفتيه دقائق ثم انصرفت إلى دهشتها، مأخوذة بكلِّ ما يفعله بها، يشتمّ عطر الحياة المنبعث من رقبتها، لا يتنفس بل يلتهمها.. سليم رجل حياتها من بين الرجال.

طالما سيطر عليهما ذلك العتاب الاشتياقيّ الجسديّ للعشاق، لم يستطيعا أن يمسكا نفسيهما عن بعضهما لحظة اللقاء فكلّ منهما يحتاج الآخر ليواجه به ظلم الحياة.

تساقطا فوق الفراش البنيّ المنبسط على الأرض.. لديهما وسادة واحدة وهما بالأصل لا يحتاجانها..

اللوحـــات المعلقة تصيح لا أحد منهما ســـمع صياحها، صورة رمل الصحراء تنـــدب حظّها فلـــماذا صوّرها فنان ما ليضعهـــا القدر هنا شاهدة على هذا العار!

حبّات الرمل تستتر خجلا..

صورة التفاحة المقضومة تُخبّأ نفســـها خلف دعامة السرداب لا تريد أن ترى شيئا فهي تعلم حتما بأنّها ستشهد يوما!

المشارط ترفض حبها له، المشـــارط خائفة عليها.. تعرفه جيّدا.. إنّه جراح.. تتعالى وشوشاتها حتى صارت صخبًا..

... الله... الله نفسه كان شاهدًا...

لم يكن الرجل يســـمع شـــيئًا فتأوّه حبيبته يكفيه، وأنينها يُشعله كتلة لهب عاشقة، وتلوّيها بين ذراعيه يُأجّج شهواته بشعورٍ ملتهبٍ كجمر دجى اللّيالي الحالكات..

وحدها الصورة الخضراء لشجرة الجوز- الوحيدة وسط الأعشاب التي لفحها النســـيم صامـــدة على رأس التلة- كانت ســـعيدة، فهذه عاشقة منهكة الأوفضة فارغة إلّا من سليم..

تحتاج الصغـــيرة إلى كلّ الأحزان والأكاذيب التي ســـدّت طريقها، تحتاج أن يكون جســـدها متألّمًا وروحها مجروحـــة.. فالعار يحتاج إلى عدم الشعور بالذنب لينمو..

***

يومها شيء ما بداخلهـــا أخبرها بأنّها لن تراه مـــرّة أخرى، شيء ما دفعهـــا إليه قبل خروجهـــا.. ضمّته وقبّلته.. عشـــيّة مباراة «الخضر» الثانية في مونديال جنوب إفريقيا وهي ضدّ المنتخب الإنجليزيّ، كان لقاؤهما اليوم سريعًا فمنذ شـــهرين عندما تفطّنت زوجته لخيانته رأى الرجل أن يقلّ لقاءاته بصغيرته..

الحصار الذي يتعرض له في البيت مخيف.. ومقلق.. وخانق.. ومحكم جدّا.. عليه أن ينهي اللعبة فلم يعد الأمر مسلّيا ولا محبّبا..

الآن.. الآن يجب أن ينهي تراجيديا حبّهما الأسطوريّ الذي وشى به عند الزوجة الطبيبة وعليه أن يجد حلّا ليتخلَّص من مشكلته.. وليس أضعف من عاشقة فقيرة..

حاول.. الله يشـــهد بأنّه حاول أن يتصيَّد خطأ ما ولكنّه لم يســـتطع، جنونها به لم يتح له مجالًا للبحث.. فقط وجودها الجارف يزعجه..

وأخيرًا سليم يرى لو أقلَّت.. يرى لو كفَّت..

قالت:

– لا أعلم متى سوف أراك مرة أخرى؟ فقط سأشتاقك كثيرًا كثيرًا.. أنا أحبك..

قالت:

– اشــتقتكَ من الآن شــقيق العمر، اشــتقتكَ كثيرا رفيــق القلب، أرجوك أن تشتاقني أيضا، أخبرتني يا سيّد الرجال بأنّك لن تدعني أشتاقك.. أقسم عليك ألا تنسى هذا..

في الحقيقة هي ككلّ النســاء كانت تخشــى أن ينســى ضمن ما قد ينسى.. حبَّها..

ملَكٌ ما قال:

– هذه آخر مرّة يُحبكِ فيها..

عزازيل ردّد مكتئبا:

– هذه آخر مرّة يكذب عليكِ فيها..

بوصلتها النسائيَّة أوحت إليها أنْ:

– قولي وداعًا..

اســترق النظر من الفتحة الصغيرة التي أحدثها بنافذة الحمام المطلَّة على باب المخرج ليضمن اســتمراريّة فضيلتــه الأبديّة ويُخرجها من عيادته.. أخيرًا..

كانت تتبعه، تقــف خلفه كما تفعل دائما، لم تُــرِد الذهاب.. أرادت البقاء أكثر، ضمّته إليها.. قبّلته قبلة خاطفة، تحسّســت جيّدا ملمس

شـــفتيه الباردتين النديّتين، فعلت كلّ ما أمكنها فعله فهي متطرّفة في كلّ إحســـاس.. تذهب في كلّ إنفعـــال إلى أقصاه.. تلذّذت بما لم يكن يوما لها.. آه كم أحبّته هذه الصغيرة.. آه..

قالت:

- لا أعلم متى سوف أراك مرة أخرى؟ فقط سأشتاقك كثيرا كثيرا.. أنا أحبك..

.. كانت تلك آخر قبلة، وانتهى العار.. انتهى بالنسبة لسليم...

في الموعد الموالي لم يحسن الرجل معاملة صغيرته فقد قَدِمت إليه بكل ما أعطتها الحياة من براءة وجمال واســـتقبلها بكل ما اكتسبه من الحياة من خبث وقبح.. جاءته حاملة ألوان الكعك الجميلة.. ألوان الحب.. واستقبلها بحمرة الجراحة.. جاءته تفرش نفسها له كما تفترش قطعة الكعك المنديل الملوّن.. وافترشها هو بمشارطه..

من البداية سألتها دنيا:

- كيف للجراحة أنْ تصلح أسلوب حب؟

.. الآن يمكنه أنْ ينظّف نفســـه من قذاراتها، الآن يمكنه أن ينفضها عن مسؤوليّته، الآن يرتاح من عبء إسنادها.. الآن يمكنه أن يعيش سعيدًا فقد حقَّق حلمه وأحبّته صغيرة ما.. بجنون.. أخيرًا.. آخرا..

طردها وسبّها، أهانها، لم تردّ على إهاناته بل استمرت تدافع عن نفسها، في مواجهة اتهامات غريبة وغبيّة وكاذبة وظالمة ومهينة « ارتديتِ الفستان الذهبي وأخلفتِ بوعدك ألّا ترتديه إلا لي.. كلامكِ سوقيّ.. لم تكوني عذراء من البداية.. لست متأكّدًا إن كان حملك منّي.. تشاهدين الأفلام الإباحيّة.. الآن استفقت.. أنت عاهرة.. «

.. بلى..

.. أجل..

.. أي نعم..

.. هكذا وبكل هذه البساطة..

حاولت أن تنظر إلى عينيه تريد أن تتحدّث إلى سليم، فهي لم تتعرّف إلى الذكر الواقف أمامها، طلبت أن ينظر إليها ولم يفعل، وجهه الأحمر والإرباك العقلي الواضح عليه وانخفاض عينيه إلى الأرض مع انحناءة رأسه التي تكتشفها للمرة الأولى، كلها تثير بنفسها شعورا غريبا غير مألوف هي التي اعتادت الشعور المألوف..

– لم يكن يصدر أيّة إشارات ضمنيّة تشير إلى شيء غير أخلاقي.. إلّا خيانة زوجته وأولاده ومهنته ورجولته وصدقه وأمانته وعهوده.. وأنا.. حدّثت نفسها.

دافعت عن نبلها في اليوم الخطأ، أقســمت على طهارتها أمام الرجل الخطأ، فليس هذا هو الرجل الذي أحبته يوما، هذا ليس سليم، وهذا بالتأكيد ليس اليوم المناسب لتقول له:

– أقسم بالله الذي لا إله إلا هو.. لم يلمسني رجلٌ قبلكَ.

بَّررت له مندهشة، دافعت عن نفسها، قالت له بأنّه مخطىء، وكم هو مهين ومتعب أن تبحث عن مبرِّرات لشخص يكذّبك.. لشخص هو بالأصل كاذب..

استخدم اللوم والاحتقار كإستراتيجيّة واقية ضدّ عاره ودافع جيّدا عن نفســه فارًا من مواقف الخزي التي وضعته صغيرته بها، واستمر كثيرا يســتخدم اللوم والاحتقار، بينما حاولت أن تغلق فمها المفتوح اندهاشا وردّت بأسئلة غبيّة:

– مــاذا أفعل الآن؟ أين أذهب؟ ماذا فعلــت لك؟ لماذا تتركني؟ لقد وعدتني ألا تفعل لماذا فعلت؟..

كل شيء إلا لماذا كذبت وقلت أنا أحبك؟.. هذه الكلمة التي ضحّت بكل ما امتلكت يومــا من أجلها، هذه الكلمة التي بَعثَتها من رمادها يوم قالها لها واشــتقّت منها.. حبيبــي.. حبيبي.. تقريبا هي لا تعرف اسمه.. لا تعرف إلا حبيبي..

لم تقلهـــا رغم رغبتهـــا في ذلك كثيرا.. لم تقلها.. فســـليم لا يُكلّمها هامسًا..

عندما قال:

- إن لم تخرجي سأحملك وأرميك خارجًا.

ردّت:

- كنت تحملني وتلعب معي واليوم تريد أن تحملني لترميني خارجًا!!

لم يُجب وواصل طردها.. سبّها.. أهانها.. شتم أمّها.. لا أجوبة لديه على أســئلتها، أمسك بيديها وراح يجرها باتجاه الباب ولكنّها رجته أن يتركها..

- أنا أرجوك أن تســتمع إليّ.. وســوف أغادر بعدها.. فقط اســمع تبريراتي فأنت تظلمني يا سليم..

.. سليم..

كانت هذه أوّل مرّة تناديه باسمه..

لم ينتبه لذلك بل أتمّ:

- أخرجي يا ابنة العاهرة..

لم تغضب ولم تردّ بل تساءلت بصمت:

– كيف عرف بالأمر؟ فأنا حدّثته عن كل شيء إلّا عن هجيرة..

لم يَطُل الوقت أثناء جرّه لها حتى وجدت نفسها مقتنعة.. كل ذلك قدري.. ها هو يعرف بأمر عارنا حتى دون أن يخبره أحد..

الفراش البنيّ يضرب الباب السفليّ للخزانة من الداخل، فقد سمع أنين أصدق صغيرة في هذا الوجود، هي التي ودّعته يومًا قبل سفر حبيبها إلى فرنسا لحضور مؤتمر ما، ارتمت عليه وضمّته إليها، قبّلته بصدقها المعهود، هي التي لم تعرف يوما كيف يمكن للكذب أن يكون أسلوب حياة...

– كم أحب فراشنا شقيق القلب، عندما نتزوّج أريد أن يكون هذا هو فراشنا، لديّ ذكريات كثيرة معه.

تُقبّل البساط كثيرًا وتضمُّه:

– لقد عشت معك أجمل أيامنا على هذا البساط البنيّ، أنا لم أبتعد عنك ولا عنه لأكثر من أسبوع مذ عرفتك، فكيف ستغادرني عشرين يومًا، سأفتقدكما كثيرًا.

– وأنا صغيرتي، ولكن هذا ضروري.

– سوف تبقى طويلًا في فرنسا، ماذا سأفعل وأنت بعيد؟

– سوف تنتظرينني، سوف تزدادين جمالًا، وسوف أعود إليكِ مشتاقا.

– أرجو ألّا تنسى دعاء السفر سأرسله إليكَ في رسالة لاحقًا، لا تغادر دون أن تقرأه.

.. وها هو الأصلع يغادرها دون أن يقرأه..

صوت رفس البساط للباب قويّ جدّا، حبيبها يواصل شتمها وكأنّه يتجاهله أو لعلّه لم يكن يسمع، البساط يتذكّر كل شيء، يريد أن يدافع عنها، إنّه يدفع باب خزانة الطبيب الموجودة على يسار المكتب.

رأت آثـــار ضربٍ عـــلى الباب وانشـــغلت عن حبيبهـــا، لم تردّ على إهاناته.. فقط عندما قال:

– انتهى كل شيء بيننا يا ساقطة..

دوّت صفعتها على وجهه في ذلك السرداب فـــ «لكل فعل ردّة فعل تساويه في الشدّة وتعاكســـه في الإتّجاه» ورغم أن الشدّة كانت تنقص ردّة فعلها إلّا أنّها آلمته فهو لم يتوقّع أنّها ما تزال على قيد القتال..

حدث كل شيء بسرعـــة ولم تفق من فعلتهـــا إلّا عندما رأته مزمجرًا قابضًا على يديها.. خضّها، رجّها، ضربها بالحائط، شتم هجيرة مرّات عديدة بعد، سبّها، أهانها، ثم صرخ بها مشمئزًّا، كان ينظر إليها وكأنّه يشـــتمُّ رائحة العفن المنبعثة من قلبها فيطبق على شفتيه بالطريقة التي عهدتها صغيرته به ليبثّ فيها ذلك الشعور المألوف..

– الآن عرفت ما هو.. الآن تَلبَّسني تماما.. إنّه العار..

ولعلّ هذا أكثر ما كان يؤلمها قبل أن تراه ضامّا شفتيه إلى بعضهما مع إنزال طرفيهما إلى الأسفل فيتفشـــى فيها الشعور المعروف أخيرا، ثم تسمعه يقول:

– أتعلمين الآن لماذا لن أتزوجك؟.. لأنَّك عاهرةٌ!!

.. أكان تزوَّجني لو لم أصفعه؟!! أكان ظلَّ يحبُّني؟!!.. تملَّكها النَّدم حالاً..

واصـــل طردها وضربها للحائط حتَّى ســـقط جســـدها الهزيل على الأرض.. أسقطها هو الذي حال دائمًا بينها وبين الأرض..

– قومي ماذا تفعلـــين؟ تمثِّلين عليَّ الإغماء يا عاهرة يـــا ابنة العاهرة! سأرمي عليك دلوًا من الماء.

ذهب سليم ليحضر الماء فهذا الذكر لا يكذب!!!.. وبقيت صغيرته مستلقيةً هناك بانتظار وصول الماء، عندما عاد رأى ما لا يمكن لحبيبٍ أن يرى عليه حبيبه ولا يتألَّم من دواخله.. رأى ما لا يمكن لطبيبٍ أن يراه ويتجاهله أبدًا..

.. عاشـــقة فقيرة تضغط على ألم رأسها وتشـــكو إلى الله فشل قدميها على حملها، وكأنّ كرة مرض داخل رأسها تستقرّ خلف عينها اليسرى

موثقة إلى قلب سليم يشـــدّها بكل ما أوتي من حقد، فيُخيّل إليها أنه يكاد يفقأ عينها إن شدّ بقوّة أكبر وخرجت الكرة..

وهل هناك قوة أكبر؟ وألم أكبر؟ شـــدُّه للكرة يؤلمها جدا.. مطلقا لم يؤلمها جسدها في جزء منه على هذا النحو من قبل.. إن خرجت الكرة سيلحق بها مخُّها تتبعه لوازمه الحمراء.. ودم..

حاولت إســـناد رقبتها بكلتا يديها ولكنَ ذلك لم يساعدها على شيء فارتعاشـــهما يجعل من الأمر صعبا، وعدم تحكُّمها بحواسِّـــها يهينها وانتفاخ وجهها يشوِّه ذلَّها.. والطَّبيب مشمئزّ من النظر إلى الحبيبة..

اقترب من المسخ العشقيّ الملقى في رواق العيادة بخطوات مزلزلة، سار إليها وخطواته تدوّي في قلبها.. أمَرَهُ ضميره «الطبِّيُّ» أن يرميها بالماء ليزيد بللها بللًا!!!

جرَّها من يديها ومســـح بحبِّهما أرض الذِّكريات، ضربها بقدمه آمرًا إيَّاها أن تنهض ولا تســـبِّب له فضيحةً، حـــاول جعلها تقف ولكنَّ قدميها لم تساعداه قليلًا..

من أســـفل.. كانت ترقبه بأنفاس مختنقة.. لم تستطع لجفائه شيئًا بل رجتـــه ألَّا يؤلمها أكثر فرجلاها ضعيفتان، رَجَتْـــه ألَّا يهينها أكثر فهي هشَّةٌ وبللها المزمن حزنًا يبلِّل كلَّ ثيابها..

الشرر المتوقّد في عينيه احتقارا يخيفها..

غاضبًا استمرَّ محاولًا رفعها عن الأرض ولكنَّه لم يستطع أن يوقفها، فأفلتهـــا كتلة ألم إلى الأرض مرَّة أخرى، هو الذي بكى على ألمها يومًا، وقف على رفاتها مستغربًا ذرفها الحارَّ مشمئزًا من هذا الكائن العشقيِّ المدمَّر، كان أحقر مِنْ أَنْ يفهم ألم عاشقٍ منكسرٍ خائفٍ ذليل.

عندما وقعت أمامه ساجدةً هي لم تسجد له بل للعار اللَّعين، للفقر، للمعاناة، للوجـــع، للقهر، للدُّموع، للمـــرض، للإهانة، للخذلان، للحبِّ المهدور.. للعمر المهدور.. للابن المهدور.. للشَّرف المهدور..

رآها تذوي أمام عينيه ولم يندسَّ النَّدم إلى قلبه بل ابتســـم وقال هذه عاشقةٌ فقيرةٌ.. إنَّه أعلى مستوى منها وهذا يتيح له انتقادها، ولا أحد أعلى منه لينتقده..

.. إلا الله..

عاف النَّظر إليها فدخل حجرته وتركها مرميَّة أمام باب المخرج من الدَّاخل.. كل شيءٍ كان يحدث في رواق العيادة الضيِّق.

استجمعت الصَّغيرة بقيَّة قوَّة باقيةٍ ورفعت رأسها عن الأرض حتَّى كادت تستوي في جلستها، تستغرب كيف مازال يشد الكرة من داخل حجرته..

- بالله عليه فليفلتها لأرتاح قليلا..

مرَّرَت نظرها في المكان منسحقة العينين تودِّع الكراسي السَّوداء البلاستيكيَّة.. ذاتُ الأرجل من حديدٍ، بالقرب من مرقدها طاولةٌ خشبيةٌ بُنيَّةٌ صغيرةٌ.. أرجلها من حديدٍ، يفصِل بين قاعة انتظار السَّيِّدات والرِّجال حائطٌ زجاجيٌّ متشبِّثٌ بجدران العيادة.. بأيدي من حديدٍ!!

كيف لم تلاحظ هذا من قبل؟

من وراء الباب الموصد دارت معركة، الأصوات تصلها في مرقدها:

- لا تُذِلَّها أكثر فقد أحبَّتك الأكثر.. كان الفراش يصرخ.

- انتبه لهذه الصَّغيرة من زجاجٍ، فهي تعشق روحك.. كانت اللَّوحات تصرخ.

- شوَّهت ماضيك الجميل وحاضرك؟ شوَّهت أجمل شيءٍ فيك؟ جرحتها أخيرًا؟.. وشوشت المشارط.

- وداعًا يا أنثى آلهة الحُّب.. بَكَتِ الجوزة الخضراء.

إنَّ الأشياء تتحدَّث.. كيف لم تسمعها من قبل؟

ابتلعت دموعها العبثيّة وأسندت ظهرها إلى الجدار الإسمنتيِّ، حاولت الوقوف ولكنها لم تقوَ، في محاولتها النُّهوض كادت تُنادي

حبيبها ليســاعدها فقلبها مازال يعتــاده رَجُلَها من بين كلِّ الرِّجال.. منقذها مِنْ بين الرجال.. قلبها لا يصدِّق ما يحصل بعد..

لم تنادِ عليه.. لم تفعل فلا صوت لديها.

أخذت تحبو وتجرُّ أســمالها المبتلَّة باتِّجاه الحمَّام بحذر، فالخيط الوهميّ المشــدود إلى قلب ســليم يزيد من احتمالية انفجــار جمجمتها جراء خروج الكرة.. هذا هو الحلُّ إذن فبقاؤها ملقاةً على ظهرها في الرواق عند عتبة الباب ليس ما أرادته من مجيئها إلى العيادة يومًا.

جاهدت نفسها وأمرت فكرها أنْ يستسقظ بعد أن نام لوقتٍ طويلٍ، ســاعدتها الجدران الإسمنتيَّة الخشنة على الجلوس فوق كرسيِّ الحمام، وهاهي الآن.. شرفٌ مدمَّر..

رنَّ هاتفٌ على الطرف الآخر للوجع:

– دنيا صديقتي العزيزة.. تأوَّهت الصَّغيرة بحشرجةٍ متردِّدةٍ..

– ما بكِ؟ أخبريني ألو ردّي عليَّ.. ما بكِ؟ ما به صوتكِ؟

– لقد أقعدني الدُّوار أرضًا في عيادة ســليم، أرجوك تعالي خذيني إلى المنزل فأنا لا أقوى على الوقوف.

– على رسلك عزيزتي سوف آتي حالًا، لا تقلقي سأصل بسرعة.

أقفلت الهاتف برعشـــة خانقة وألم فضيع، فكَّرت قليلا ثم مسحت عينيها مـــن دمعها الحارّ الســـخيّ تريد أنْ تتأمَّل نفســـها جيّدا، لأنّ سكوت حبنا في الجهة الأخرى عن النبض فجأة نادرٌ حتمًا.

جعلها ســـليم محبوبة جدّا، منحها عشـــقا كبيرا وفراقا أكبر، تركها لقدرها مع ألمها وكبريائها المجروح وقلبها المحطم.. والآن ســـيعيش هو وتموت هي.. وموت حبها اليوم هو كل ما كان يعنيها.

ما يحيّرها أنّه كان رائعا أو لعلّها هكذا كانت تراه! أين كانت كل هذه الأقنعة؟

أكلها حيّة كذئب، نهش بقاياها كضبع، ترك امرأته للغياب كخنزير، ســـمّم روحها كعقرب، استعبدها كالنمل الســـفّاح، ومزَّق أشلاءها الباقية من الحريق كما يفعل الدبور الياباني..

– إلهي هذا ليس عنقاء كما ظننت!

.. كيف لم تر كل هذا من قبل؟!!

***

دقّةٌ على الباب لم تُرد سماعها مطلقًا، أرادت البقاء في المكان ما أمكنها، أرادت أن تحسّ بحبيبها قريبًا منها حتى لو كانا في غرفتين متباعدتين، وتفصل بينهما جدران إسمنتيّة..

الخوف.. الخوف يتملَّكها.. الخوف ينهكها.. الخوف من الفقدان مخيفٌ جدًّا.. رغم وجود أنواع مفيدة من الخوف كخوف الظلام الذي أنجب النور، وخوف الوقت الذي أنجب الساعات، وخوف الوحدة الذي أنجبنا.. بينما خوفها من فراق سليم أنجب رعبا مميتا وارتعاشا أنثويًّا غير قابل للرُّؤية، أنجب وجعًا دفينا.. صغيرا يزحف على أربع.. يطرق أبواب لهفتها على سليم ويناديها بصوته الهش المخيف.. يا أمِّي الصغيرة.. سليم راحل لا محالة..

لم تكن قدماها تحملانها، قلبها المزدحم بسليم يضرب بسرعة فائقة، ووجهها المنتفخ صار قرمزيّ اللون، يداها تتخبّطان من شدة الارتعاش، والكرة.. الكرة تؤلمها بقوّة لم تكن تعلم بوجودها من قبل.. شفتاها رغم الرجفان ردَّدتا:

– مستحيل.. لا يمكن أن يكون هذا صحيحًا..

.. هي لم ترفض بقوة أنْ يتركها فلكلِّ ذكر حريّة الهروب متى أراد.. ولكنّها ترفض بصرامة أن لا يكون قد أحبها.. ترفض أنْ يفكّر فيها بهذه الطريقة البشعة.. ترفض أن يعاملها كساقطة فهي ليست كذلك..

فتح سليم باب عيادته واســتقبل دنيا التي يراها للمرة الأولى هادئًا مبتسمًا كعادته، هدوؤه انتقل إلى دنيا التي لم تعلم ما الذي يحصل، لماذا هو هادئ هذا الرجل؟ ألم يعلم ما حصل لصغيرته؟

– مســاء الخير، من فضلك اتصلت بي صديقتــي قالت بأنّها هنا أريد رؤيتها.

– لا أعلم كانت هنا، ربّما هي في الحمام أو لعلّها غادرت.

– ماذا تعني بغادرت؟ هل أنت سليم؟

لم يُجِب على سؤالها بل انســلّ هاربًا عائدًا إلى سردابه، كأنّه لا يسمع أنين حبيبة العمر يدوِّي في المكان..

– دنيا! أنا هنا، أنا في الحمام.

خفَّف من سرعة هروبه يريد أن يســترق السمع كما اعتاد أن يسترق الرؤية من وراء النوافذ المثقوبة.. وكما اعتاد أن يسترق الحب الراقص والحب المجنــون والضحك الفاخر والجنون الناعم وفخامة ذكريات الفقر.. خفّف سرعته يريد أن يعرف من سيسند صغيرته الآن..

.. ومن غير رفيقة الدرب؟

تقدَّمت دنيا ودفعت بالباب الموارب لتنظر مصدر الصوت وكان لها ما أرادت.. مرميّــة صديقتها على كرسيّ الحمام بوجهها الأحمر المنتفخ

وعينيها منطفئتا الابتسامة متورّمتين.. كلّها يرتعش.. ثيابها المبتلّة وخمارها مفتوح الجانبين..

.. رفيقة الدرب تنادي.. يا رب..

- أختي يا رفيقة الدرب! ماذا حلّ بك؟ ما بكِ؟ أخبريني.

جَرَت إلى صديقتها التي ارتمت بين ذراعيها وصاحت ملء مرضها:

- آه دنيا.. آآآآآآآآه صديقتي..!

ضمّتها بقوَّة إلى صدرها وتساءلت مندهشة فهي لم تفهم شيئًا:

- ما بك يا فتاة أخبريني؟ لماذا أنت على هذه الحال؟ ومن الرجل الذي فتح لي الباب؟

- آه دنيا! إنّه هو.. سليم..

- العنقاء!! لا أنت تمزحين، ولكن كيف أنّه غير مبال؟ ألا يعلم ما حلّ بك؟

- استقوى عليّ دنيا! أذلَّني، تجرَّأ عليّ وهو يعرف بأنّ قلبي الصغير هذا منهك مريض منتفخ مهزوم تفصله عن الموت خطوة واختار حبيبي أن يساعد قلبي على خَطوها، أراد أن يكون هو قاتلي.

- أفهم بأنّه أنهى علاقتكما؟

– طردني دنيا دون أن يقول لي لماذا، قال بأنّني عاهرة.

– مازلت عند رأيــي فهذا الرجل لا ينفكُّ يفاجئنــي، ولكن لماذا ما الذي حصل؟

– لم يحصل شيء.. أتيته كعادتي أردت أن أراه، فقد اشتقت إليه لأنّني لم أره منذ الخميــس الماضي، واليوم هو الثلاثــاء.. آه دنيا كم هذا مؤلم.. آه..

– هيا أكملي ماذا بعد؟

– وفقــط.. قام بطردي وعندما اســتفسرت قال بأنّنــي إن لم أغادر فسوف يحملني ويرميني خارجا.. ضربني دفعني جرّني من روحي وأعادني إلى حيث كنت؛ أسفل..

كان فم دنيا مفتوحًا إنّها حتمًا مشدوهة، ولكنّها تداركت:

– وليكن.. فليذهب إلى الجحيم لماذا تفعلين هذا بنفســك؟ هيا قومي نعود إلى المنزل.

– كلَّا أنت لا تفهمين.

– لا أفهم ماذا؟

ليس للأمر أن يكون أهون وهي لا تعرف طريقة لتُهوِّنه.. قالت:

– أنا لســت عذراء، لقد وقــع العار هنا، أنا قتلــت ابني بيدي، لقد أجهضت ابنه دنيا.

توقّفت لحظة تريد أن تفهم بالضبط ما يحصل، دنيا عكس صديقتها.. وبدل الــصراخ والعويل هي تبحث لدى فِكرِهــا عن حلٍّ حالًا، لا تهمُّها الأســئلة التافهة التــي اعتادت صديقتها طرحهــا.. إنَّها فعلا تتصرَّف كامرأة وتفكِّر كرجل.

تركت صديقتها وخرجت من الحمّام وتَقدّمت بخطوات متســارعة وفتحت باب حجرة الــسرداب المخبأ بقوة تدلُّ على غضب حقيقيّ، أوّل ما التقطته هو شذى عطره الممزوج بنتانة نقوده:

– ما الذي تقوله صديقتي يا أخ.

عابثًا لاهيًا لا شيء ممَّا سيحصل للحبيبة يعنيه:

– خذي صديقتك وارحلي.

– ماذا تعني بارحلي؟ هل تظنُّ الأمر ســهلًا إلى هــذه الدرجة؟ ماذا أصاب عقلكَ يا أخ؟

– قلتُ اخرجا من هنا وفقط.

– هل تظنُّ فعلتك هذه ستمرُّ هكذا بهذه البساطة؟

كانت الحمقاء تجرُّ أســمالها المبلَّلة وتحبو مستعينة بالجدار الإسمنتيّ، تتبع الخيط الوهميّ وصولًا إلى النقاش الذي آن أوانه، تريد أن تمنع دنيا من الثأر لكرامتها، فالأصلع الخبيث.. حبيب العمر..

– أرجوك دنيا كفِّي عن هذا، أرجوك دنيا أنت تؤذينني.

– أنت لست رجلا يا منافق..! يا عديم الشرف..!

لم يردّ عليها، لم يقف من وراء مكتبه حتى، فحبيبة العمر تستبسل في الدفاع عنه، أمسكت يد دنيا بحنان منكسر ترجوها:

– هيا نرحل صديقتي فلا مكان لي هنا على ما يبدو!

دنيا لم تســتوعب غباء صديقتها بعد، كل ما فعلته أنَّها ضمَّتها إليها ومنعت سقوطها الحتميّ على الأرض دون أنْ تُشيح بنظراتها الغاضبة عنه:

– صدّقني ســوف تدفع الثمن، أنا أقسم بأنّك لن تفلت بفعلتك.. يا منحطّ..

استمر جالسًا هادئًا لاهيا بقلم الكتابة:

– أنتما كبعضكما ساقطتان وقليلتا أدب.. هيا أخرجا.

واســتمر مذلًّا صغيرته بإمعانه في كل تفاصيل جســدها المقهور ألمًا وحبًّا ومرضًا وبللًا.. نثر رمادها المتبقِّي من اللهيب.. بكل ما للكلمة

من معنى.. لقد دمَّرها..

في تلك اللحظة بالذات سقطت كل الأقنعة.. هو الطبيب المهذب، الهادئ، العاقل، الذي لا تسمع منه إلا همسًا طيّبا.. حقير نذل ينوبها في كلامها السوقيّ، وهي كثيرة الكلام المفعمة بالجنون.. مندهشة، ضعيفة، لا حروف لها إلّا لماذا؟.. ها هي أمامه عاشقة فقيرة ومريضة..

- أنت هو قليل الأدب يا شبيه الرجال يا عديم المروءة.. كيف تضربها وأنت تعلم بأنّها مريضة وأنت طبيب؟

صرخت رفيقة الدرب بكل ما أوتيت من غضب:

- أين ستفرّ من ربّكَ يوم الحساب؟ ماذا ستجيبه عندما يسألك: بأيّ حقّ تؤذي مريضًا ضعيفًا مذلولًا.. صغيرة.. أدّيت اليمين.. أقسمت على علاج المرضى والحفاظ على صحَّتهم.. أنت حقًا حقير بجدارة..

كنتيجة حتميَّة لما يفعله تابعت دنيا:

- أنت هو قليل الأدب يا.. أعلم بأنّك لن تصدقني لأنَّ كذبك يفرض عليك تكذيب الآخرين أيضًا، ولكن هذا الكون منتهٍ.. بيوم للحساب.. صدِّقني يا.. يا شهم..

كيف لحب كبير كالذي أعطته أن يقابل بجرح كبير كالذي أعطاها؟

أخرجها جرحه لها عن زمن البشريَّة.. كان محتقرًا لها وكانت تبتسم في وجهه، كان هاربًا منها وكانت تمسح آثار هروبه من بعده، كان سعيدًا لفراقها وكانت تغادره كما أراد منها بإذعانٍ ذليل..

– أنا أقســـم عليكِ أن نخرج من هنا دنيا، أنا أرجوكِ فليس لي مكان هنا.

***

في طريق العودة.. والطريق اليوم أطول من أيّ يومٍ مضى:

– هل نسي كم أحبه؟ هل نسي وجود حبيبة العمر؟ هل صدّق نفسه ويظنّ الآن بأنني عاهرة؟ أهكذا كانـــت نظرته لي طوال هذه الفترة؟ لماذا تركني؟ لماذا فعل بي هذا؟ لقـــد كوى قلبي، لماذا؟ لماذا رماني بين كل هذه الأسئلة؟ أنا لم أفعل شيئا سوى أنّي أحببته بجنون.. لماذا فعل بي هذا؟

– هو يعطي نفســـه أعذارًا ليستطيع العيش من دونك، إنّه فقط يوهم نفســـه بأنّك ما يريد أن يراك عليه حتـــى يرتاح ضميره ليس أكثر، دعيه صديقتي وسوف يحكم قاضي السماء بينكما.

–كم أكره هذا اللون كم أكـــره هذه الرائحة.. رائحة الوجع، ياله من وجعٍ مؤلمٍ جدًّا!

– أرجوكِ حبيبتي توقَّفي عن البكاء إنّه في الثامنة والأربعين من عمره وهو يعيش هنيئا يُعطي نفسه كل ما تســـتحقُّه، مازال يعتقد نفسه مراهقًـــا بينما تدفنين أحلامك وهي صغيرة، لا تتنهَّدي وتذرفي دمًا فهو لا يذكرك حتّى بين تنهيدتين.

– لقد تركتُ عمـــري وعنفواني هناك دنيا! جنوني وضحكاتي.. حبِّي للحياة، تركتُني في سردابه أنا لم أخرج بعد.. ولا يمكنني الخروج..

مازلتُ مستلقية على فراشنا أنظر إليه عاريًا هو الذي لم يره أحدٌ عاريًا إلا أمه و«أمُّه الصغيرة».. مازلتُني بين ذراعيه أستمع إلى ذكريات فقره وقصص طفولته، مازلت أتفرَّج على صوره صغيرا مازلت أستمع إلى مشاريعه الطبيّة مازلت أضمّه إليّ أخبره بمدى حبي له.. مازلت دنيا لم أخرج من سرداب العار..

- أنا أعرف تمامًا ما تشعرين به، صحيح لم يسرق أحدٌ عذريَّتي ولكنّني أعلم جيّدا ما تشعرين به، فعلًا الأمر مؤلم ومهين فهذا الخبيث سخر منك، أهان كرامتك، لعب بأحلامك، أعاد ترتيبها، ثم بعثرها من جديد، بل ترك لعواصف الزمن بعثرتها لأنّه منشغل على ما يبدو بالحفاظ على شبابه الدائم!

- هل سيأتي اليوم الأخير ويندمل الجرح وتجفُّ الدموع؟ هل سأنساه ذات عُمْر؟

تمسح بشفقة رحيمة على وجنتيها لتزيل آثار الدموع المنهارة إثمًا وحزنًا:

- هذا حتمًا صعب ولكنّه سيحصل، أنا أعرفك جيّدا فأنت أقوى من نازلة البلاء، أنت قويّة جدّا ورغم تحلّله فيكِ، رغم سكنه في نخاعكِ، رغم وجوده الأزلي في قلبكِ، أنا أعلم صديقتي بأنّكِ ستنسين يومًا هذا الذكر، سيأتي عليك يوم لا تعودين تذكرينه فيه،

لن يعود لوجوده معنى..

تسرح بقلبها للحظات ثم تواصل والدموع تمنعها من الكلام فألم صديقتها فاق كل الآلام:

- خُذي العزاء والسلوى من نظرتكِ للمستقبل وإن كنتِ تبكينه اليوم فغدًا ستلتقطين صوته ولا تلتفتين، تسمعين اسمه ولا تشعرين بشيء.. سيأتي عليك يوم لا تعود لديك تجاهه أيَّة مشاعر سوى ندبة غائرة في قلبك.. وسوف تعيشين حياتكِ بإصرار.. تذكَّري كلماتكِ جيِّدًا.. سوف تتمدَّد الأفعى وسوف تقطعينها.. جرح الشرف سنرقِّعه معًا، أنا هنا وسوف نكون كما كنّا دائمًا عونًا لبعضنا.

- آه دنيا.. أيّ جرح هذا الذي سنرقعه؟ آه دنيا..

غلبتها الغصة في صدرها، وخنقتها الدموع في عينيها، وأهانها فِعلُه بها، فطأطأت على استحياء وحرَّكت يدها الواهنة المرتعشة مشيرة إلى صدرها أين تقبع الكتلة الحيَّة التي تضرب بقوة:

- هذا ما أريد أن أداويه..

- صدِّقيني ما كان هذا ال.. ليفعل بكِ شيئا لولا أنّ النزف بداخلكِ أتعبكِ، لولا أنّ قلبكِ الممزَّق أنهككِ وما عدت قادرة على اجترار آهاتك.

- أريد أنْ أكلّمه دنيا! أريد أن أُرسل لأسأله.

- توقّفي عن مراسلته، هات هاتفكِ أنتِ لن تتَّصلي به بعد الآن.

يخنقها دمعها تشبَّثت بيدي رفيقة دربها وأخرجت بضع حروف:

- أرجوكِ دنيا! أنا أريد منه إجابات على أسئلتي فليس من العدل أن نضحك سويا وأن أبكي بمفردي..

- هو لا يملك أيّ إجابات من أجلك، هو نفسه يجهل لماذا فعل بك هذا؟ فغريزته تعميه، لا تتَّصلي به أو تراسليه ما حييت، فسوف تفقدين كرامتك أكثر من هذا وهو قطعًا لن يعود لأنه ضبعٌ هارب.. اسمعي كلامي مرَّة واحدة لقد أصغيت السمع له كثيرًا من قبل.. أحببتِه حبًّا أعمى وها هو يثبت لك بأنّك عمياء حقًا، ماذا تريدين أكثر؟

- لا أحاول إعادته، أريد فقط أن أسأل.. لماذا فعل بي هذا بهذه الطريقة؟ لماذا عاملني هكذا؟ لماذا تركني فجأة؟

- هو لم يتركك فجأة فأنت قلت بأنّه ومذ علمت زوجته بالأمر تغيّر حاله كلّيًا، لابدّ أنّه حاول أن يتصيَّد أخطاءك كثيرًا ولكنّك استعصيت عليه عشقًا، الحصار الخانق في بيته يقتله وعليه أنْ يعيش.. يريد أنْ يعيش.. رغم كلّ التنازلات.. وأنتِ القربان الأضعف.. والمتاح..

- أنا لا أفهم كيف له أنْ ينسى؟ كيف سيستطيع أنْ يعيش من دوني؟ كيف سينام الآن؟ فهو لا يستطيع النوم إذا لم يسمع صوتي، عليّ أنْ أعود إليه دنيا! أنتِ لا تفهمين! سليم لا يستطيع العيش دون حبي له..

لم تردَّ دنيا بل حدَّقت بها ملئ عينيها واثقة من نظراتها محرّكة حواجبها لأعلى بإصرار، فاستفاقت الصغيرة وقالت بهدوء ذليل:

- لابدّ أنّه يستطيع العيش من دوني إذن.. ولكن ألا يعلم كم أحبه؟

- بـــلى! هو يعلم ذلك جيّدا.. هو الأكثـــر معرفة لذلك، ولكنّه يوهم نفسه بكل ما قاله حتى يكون قويّا والأقوى لا ينظر إلى الخلف لأنّ ذلك سيضعفه، هو لم يستطع أن ينهي علاقته بك دون أن يجرحك فلا يمكن لحب عظيم كالذي تُكنِّينه له أن ينتهي من دون أن يسبّب أيّة مأســـاة، ماذا تعتقدين؟ أنّه لا يعلم مـــا تعانينه؟ ولكن لا خيار أمامه كان عليه أن يضحّي بـــكِ ليعيش هو مع عائلته.. أو ربما مع عشيقته الجديدة!

بكـــت الصغيرة ذلك اليوم للمرّة الألف فهـــي حزينة والحزن دومًا يُبكيهـــا، بكت الرجل بعمرهـــا وحبّها وحياتها لأنّـــه كان كل آمالها وأحلامهـــا، كانت تبكي حبها بينها وبين نفســـها، تمنّت لو أنّه لامَها، واجهها بأخطائها، عاقبها، طعنها بسكِّين، ولكن لم يدمِّرها كما فعل..

- لماذا تصرخين وتبكين؟ لماذا تفعلين هذا بعَيْنَيكِ وقلبك؟

- هل تعتقدين بأنّنـــي أفعل ذلك دون أن أتعرّض إلى معاناة؟ وكيف برأيك يبكي الناس حبّا ضائعًا؟ فأنت أدرى منّي.

- ولأنّي أدرى! أقول هذا، فلن ينفعك بُكاؤك لأنّه لم ينفعني أيضًا.

- أرجـــوكِ دنيا! كفِّـــي عن هذا.. ويحي ماذا حلّ بي؟ وا أســـفي على قلبي، ووا حزني على نفسي، ويا ويحي ماذا ينتظرني!

- واصلي انتحابـــك حتى نهاية العالم من غير أن يقدّم ذلك شـــيئا أو يؤخّر، ستبكين أكثر عندما تقبعين في مكانك وحدك سوف تكونين قد خسرت كلّ شيء، ولكنك ســـتكونين راضية عن نفسك بشكل رهيب، لأنّ حبك نقيّ لم يخالطه شـــكّ.. وأجمل إحساس أن تحسّي الرضا عن نفسك.. صدّقيني سوف تكسبين نفسك إلى الأبد.

- أنا لست بهذه القوة.

- بـــلى أنت كذلك وأكثـــر، فإذا لم يدمّرك عمي عـــمار فليس لأصلع خبيث أنْ يفعل.

- هذا ما يُتعِبُني دنيا! حياتي لم تكن أبدًا سهلة وأنا لم أعد أتحمَّل أكثر، ما عاد كاهلي يقوى على حمل الهموم كما كان وأنا منهكة الصدر.

- فـــإذن صرتِ ملزمة أن تكوني غير مهتمّة لـــشيء، لابّد أن الجروح

التي نزفت بداخلك لم تعد تؤثِّر فيك، هي التي صارت كالثنية التي ترتسم أكثر بمقدار ثني الورق في نفس المكان.

– هل شفيت أنت؟ أخبريني يا أعزّ الأصدقاء.

تضمّها إلى صدرها وتمسح على رأسها:

– الألم لـــن يزول بل يبقى غارقًا في العمـــق ولا يموت، ولكن ومع مرور الوقت يندمل وتخف حِدَّته.

– لقد كنت على حقّ عندما قلتِ بأنّه عليّ ألَّا أتمادى في حبّي له.

– يومها كنت أحذِّرك من خطر سيلحق بروحك، ولكنّني اليوم أحيِّي فيكِ شجاعتك التي لم أملكها يوما، فرغم علمك باستحالة حبك إلا أنّـــك حاولت، وبقي إصرارك قويًّا كـــما في أوّل يوم أحببته فيه وشرف المحاولة يكفيكِ، مضيت خلف مشاعركِ وتماديت فيها.. بالنهاية أليس التمادي في كل شيء هو ما يجعلنا بشرًا؟

***

- .. وأخيرًا فراشي.. سأنام.. سـأنام قليلا.. ثم أستيقظ ويكون كل شيء على مايرام.. سيعود كل شيء راقصا في الغد.. سأنام لأستيقظ من كابوسي غدا..

« النوم هبــة إلاهية، لولاها لاجتاح العالم الجنون.. كل ما في الكون ينام ويصحــو، ويصحو وينام، إلا آثامنا وذكرياتنــا التي لم تنم قط» «يقول يوسف زيدان» في عزازيله، والصغيرة لم تنم قط تلك الليلة ولم تجفّ دموعها، لفرط آثامها ما عاد النوم يعنيها، وكيف ينام من ضمن الموت؟ نسيت بأنّ لديها تحاليلا طبيّة في الغد، فحالات الهوس الغريبة التي تصيبنا عندما نُهجر تجعل من كلِّ شيء تافهًا عدا جرح الفراق.

ليت الصوت يصمت برأسها، كم تكرهه! إنّه يؤلمها ويمزِّق وحدتها، أســكتيه يا أيّتها العنايــة الإلاهيّة.. صمت الهاتــف اللعين.. صمته يقتلها يعذّب قلبهــا ماقد صَلُح، أرادت أن تراســله، تلوم على قلبه نسيانه تنتقد كل شيء فيه، تنبِّهه إلى مدى اشتياقها دون أن تقول ذلك تماما، تتحرَّش برجولته خلسة وتبكي أنوثتها علانية.. أنا أموت.. أنا أغنّي.. أنا أحيا.. أنا أصــلّي.. أنا..أنا..أنا.. كل شيء إلا أنا أحبك.. أرادت أن تجرِّب كل شيء، فصمت الهاتف يقتلها..

حــزن الهاتف الصامت هو دائــما قصاصنا العشــقيّ الأكثر تطورًا والأكثر استهزاء.

زوجتــه علمت بالأمر وما في ذلك؟ أليس هــو القائل كذبًا « تعبتُ الأكاذيب، أريدها أن تعلم بحبنا فأنا لا أحب العيش في الظلام»؟

زوجته علمت بخيانتــه، ماذا فعلــت؟ لاشيء.. طلبت ألا يتزوج فقط.. فقط..!

لأنّه إنْ فعل ستنتشر الأقاويل مترامية كلماتها، سيقولون سليم تزوَّج من فتــاة بعمر ابنه، ســيقولون بأنّها كبرت، ســيقولون ترك زوجته الطبيبة من أجل بائعة في محلٍّ للكعك، شــعورها بالعار هي الأخرى كان مرتبطًــا بكلمات النــاس عنها، والفضيلة كانــت تعني ألَّا يعلم الآخرون عن خيانة زوجها لها شيئًا!!!

ســيقولون خطفته من زوجته.. أبعدته عن أولاده، ســيقولون بأنّها ساقطة وشريرة.. لا أحد سيعلم أنّه من أجبرها على حبه بتبّنيه لها؛ هي التي عاشــت عمرها في العراء دون أن تحياه حقًّا، لا أحد سيعلم بأنّها ابنة هجيرة وعمار.. لا أحد سيعلم بأنّها لازالت صغيرة.. بل ستحاكم كما حوكمت هجيرة..

في الغد لم تستيقظ بل استمرت جاثمة، لم تنهض، لم تتنفّس، لم توقف النحيب..

– هل أنــت بخير الآن؟ أختــي العزيزة انهضي فاليــوم موعدكِ مع الطبيب.

تتحدّث من تحت الغطاء:

- لا أريد أن أسمع كلمة طبيب إطلاقًا.. لا أريد أن أداوي شيئًا.

- ماذا تقولين؟ هذه ليســت أنتِ، أنا لم أعرفك هكذا، هل نسيت ما كنت تقولينه لي أيام القهر والألم، رغم سيطرة الحزن عليك، لم يكن لتفاؤلك حدود.. تذكرين؟ هل تذكرين؟

- لا أريد أن أذكر شيئا بعد اليوم.

ترفع عنها الغطاء فجأة وبقوَّة:

- بــلى عليــك أن تتذكّري لن أدعــك تستســلمين الآن، كنت دائما تذكِّرينني بأنّ القادم أفضل، كنتِ مقتنعة بأنّ العمر ينتظرنا لنخرج من قوقعة الماضي اللعين لنعيشها بكل ما ستُؤتينا الحياة من حياة.

- قلتُ أســكتي لا أريد تذكُّر كل هذه التفاهــات، لقد كنت أخدع نفسي وأخدعك فلا وجود للرخــاء العاطفيّ أبدًا.. أخبريني لِكم من السنوات عليّ أن أصبر بعد؟

- ألســتِ من قــال لي أنّ الأمور لابدّ أنْ تصبح بخــير وإلّا فما فائدة وجود الله؟ ألم تقولي بأنّ الشقاء.. الشقاء نفسه ليس أبديًا.. إن كان كذلك فلماذا نبقى أحياء؟ قومي هيا لن نفوّت موعد الطبيب.

- لا قدرة لي على تحريك شيء أنا شـــبح غير مرئيّ.. فقط دعيني أنام وسأستيقظ غدا ويكون قد انتهى هذا الكابوس.. دعيني أنا حزينة وأريد أن أبكي..

- ابكِ شـــقيقتي.. ابكِ يا ابنـــة أمّ.. لا تحزني ولكن ابكِ، لأنّ لك إلها جبَّارًا يحسب دموعك وينتقم لك بها.. ابكِ شقيقتي..

الدوار وألم الـــرأس والحمى والخدر المزمن في نصف وجهها الأيسر يجعل الأختين مستغربتين جدّا فما سمعتا بمرض يسبب هكذا أوجاع من قبل، لذلك تحاملت أحلام على أختها، أســـندتها وســـارت بها في طريقها المظلم.

بعـــد خروجهما من عنـــد أخصائيّة الأعصاب كانـــت الصغيرة قد أضاعـــت نصف ما لديها من قوة فما عاد بإمكانها أن تواصل المســـير، استقلتا ســـيارة أجرة واتجهتا إلى المركز الطبيّ للأشعة الأكثر شهرة في قســـنطينة ليحصلا على موعد لتجري صور الرنين المغناطيسي «IRM Imagrie par Résonance Magnétique » - »»- لرأســـها فهـــذا ضروريّ بحســـب الطبيبة، وعلى هذه الصغيرة أن تختبر عـــلى ما يبدو كل آلام الحياة لتكبر.

الموعـــد كما قالت الممرضة بعد غد، ولابـــد أن تكون جاهزة أو على الأقل عليها أن تـــأكل قليلا قبل الموعد وهذا ما حرصت عليه أحلام خلال تلك الفترة.

بعد الغد كان لدى أحلام امتحان عاجل فلم تقدر أن ترافقها، ودنيا انتهت إجازات عملها ولم تستطع القدوم.. أمّا الرجل..

.. قرّر أنّ علاقتهما لم تكن شـيئا ولن تكون، قرّر بأنّ حياته أهدأ مع زوجة وأربعة أطفال منها مع صغيرة، قرّر أخيرًا بأنّه أخطأ حين أحبها فهذا عار! وأخيرًا قرّر أن يتركها.

قرَّر أن يُفلت روحها خوفًا على عائلته.. متأخِّرًا.. فصغيرته اليوم ما عادت صغـيرة ولا قلبها ما زال صغيرًا، وحتما جرحها ليس صغيرًا، ولن يندمل كما لو كانت صغيرة..

سـارت في طريقها المظلم الذي كلّما أظلم عليها مشـت فيه.. منذ صغرها وهي صغيرة منذ صغرهـا مازالت صغيرة، وهذا الطريق ما فتئ ينتهي..

دخلت غرفة الأشعة يرافقها خذلان ما بعد الحرب، خلعت كل ثيابها وارتدت مأمورة ثوبا أخضر شـبه شفاف، افترشت خيباتها واستوت بجسـدها الهزيل فوق الطاولة العارية من أيّ مظهر وثير، تنفّسـت بعمق كـما طلب المشرف، قبل أن يغلق على رأسـها بصندوق أبيض بيضويّ مخطّط الثقوب عموديًّا يشـبه الأقنعـة التي نراها في الأفلام الأمريكيّة، تلك التي يُلبسونها للمحكومين موتًا بالصعقة الكهربائية، سـدَّ أذنيها بوسادتين صغيرتين رماديّتين مخصّصتين لهذا الغرض لأنّ

الصوت الذي تصدره الغرفة المصوِّرة بالأشعة عال جدّا جدّا، أدخلها المشرف حجرة مستديرة ضيّقة على مقاسها تمامًا حتى أنّها لو تحرّكت للامس رأسها سقف الحجرة، كأنّها القبر الموحش، ولكنّها للأمانة مضاءة جيدة التهوئة.

لم يكن لديها متّسع للخوف ولا للبكاء، أغمضت عينيها ولم تفتحهما مطلقًا لأنّ رؤية سقف القبر وإن كان مضاءً ومطليًّا بالأصفر لم تكن تستهويها.

آه.. كيف لم تعرف بأنّه منحطّ من قبل؟

آخر ما سمعته:

- إنْ خفتِ أو قلقت أو شعرت بأيّ إحساس غريب ارفعي يدك فحسب وأنا هنا أراقبك من خلف الزجاج وسآتي إليك حالا.

هي ليست « ساديَّة» حتمًا، ولكنّها «مازوشيَّة»[1] بالتأكيد..

- لقد ضاجعها، نام إلى جانبها، فوقها وربما تحتها، ضمَّها إليه وقبَّلها، أخبرها كم هو مشتاق إليها وكم هو نادم على خيانته لها... كانت الصغيرة تعذّب نفسها..

غريب هو جرحها بقدر ما هو مأساويّ! فطالما صرخت من ألمها

1 - حالة من التلذذ بتعذيب النفس وهي عكس الساديّة التي هي حالة من التلذّذ بتعذيب الآخرين.

وبكـــت.. لكنها اليـــوم مكبَّلة لا تقوى على اللطـــم ولا على الرثاء.. ولكنّها «مازوشيَّة» بالتأكيد..

طوت طوت.. طان طان طان.. طَقْ طَقْ طَقْ طَقْ.. دَفْ دَفْ دَفْ.. قَـــاقْ قَاقْ.. طَبْ طَبْ طَبْ طَبْ طَـــبْ.. الصوت قويٌّ وعجيب..! كأنهـــا في بحيرة للبجـــع، هي لا تعرف صوتا للبجـــع ولكنها تخيّلت المكان بحيرة واســـعة كبيرة تنتمي إليها كلّ أنواع الطيور التي تصدر الأصوات العجيبة.. البجعة المتألّقة قريبا من أغصان الشجرة الخضراء هـــي من تنتحب بوجع صاخـــب.. قَاقْ قَاقْ.. قَـــاقْ قَاقْ.. سرحت وتخيّلت.. هـــي التي اعتادت تخيّـــل الغرف والمطابخ، الشراشـــف والأغطية، الشـــوكات والســـكاكين، الأحذية والفساتين.. هي التي درّب عمي عمار عضلات مخيّلتها جيّدا في المنزل الإفتراضيّ..

كأنَّ البجعة في عزاء.. أزعجهـــا الصوت فقد ملَّت صغيرة الخيبات التأبين.. لماذا ينقلب الكون إلى صوان عزاء فقط لأنَّها أحبَّت نذلا؟

رغم أنَّ أذنيها مســـدودتان ولكن الأصوات التـــي تصدرها غرفة الرنين المغناطيسيّ قويَّة جدًّا، والوحدة هناك توجِع..

اليوم عرفت ما كان يعنيه أجدادنا عندما لا يبكون ألمًا ضاربًا، عندما يتألَّمون ولا يكون للذرف مكانٌ وسط الوجع المُوجع حزنًا.

ربّما وهي هنـــا رأت أخيرًا بأنّ هذا الذكر لا يســـتحق لقب الرجل فكيف به يقفز إلى رتبة عنقاء فارّ من الأزل.. طُوت طُوت.. طَانْ طَانْ طَانْ.. طَقْ طَقْ طَقْ طَقْ.. دَفْ دَفْ دَفْ.. قَاقْ قَاقْ.. طَبْ طَبْ طَبْ طَبْ طَبْ.. مازات البجعة تتحسَّر..

يا له من نوع فاخر للحزن..!

***

الفقــر الحقــير.. الفقر اللعين.. رغــم كلّ شيء عليهــا أن تواصل العمل بالقرب من الأصلــع الخبيث، لابدّ من المرور على محلِّ العمل والتحدُّث إلى نبيل مع أنّها أرادت تجنُّبه فقصص حبها سراب والمحلّ يُحيِي ذكرياتها.

حملت أوزارها، تحمّلت أوزار حبيبها.. أمها.. أبيها.. ابنها.. وسارت بها في طريق القهر، لم ترفع اليوم رأسها عن الأرض بل استمرت ذليلة.

عندما فتحت الباب الزجاجيّ - بعدما تركتها أحلام لدقائق- لم تر أحــدًا في المكان هي بالأصل بدأت تفقد قوَّة بصرها، رؤيتها الضبابيَّة للأشياء تخنق أنفاسها وتُظلِّل فِكرَها المستيقظ غدًا..

المحلُّ مفتوح ولابّد من وجود نبيل في مكتبه، تقدَّمت وسط ثلاجتي الكعك الكبيرتين الفارغتين كعادتها مســاءً، مــرَّت بجانب ثلاجة المشروبات الغازيَّة واســتدارت يســارًا متجهة إلى الركن الرومانسيّ المظلم أين المكتب الصغير، عبق السكر يدغدغها ولكنّها لم تضحك.. لم تبتسم حتّى..

«Jacques Brel» يدنــدن في المــكان « Ne Me Quitte Pas»من دون أن يطرب له أحد..

عندمـــا دفعت باب المكتب الموارب لم تدهش، لم تســـتغرب، لم يكن هـــذا غريبا ولا متوقَّعـــا.. فقط هي لم تهتمّ.. كانـــت محبطة من كل ما حولها.. حتى العار خذلها..

عيناه الجاحظتان الضيّقتان تلعقان جســـد نبيلة مجـــرَّدًا من انتظاره، عاريًا إلّا من حبّها لنبيل.. هذه الحمقاء الأخرى..

الصور هنا أيضا تصيح.. نبيل ونبيلة لا يسمعانها.. تصيح وتصيح..

صورة الكعكة الفرنســيّة الصغيرة تتنهّد نبيل ونبيلة لا يســـمعانها ولكن الصغيرة تسمعها جيّدا..

الملاعق والصحون توشوش، صخب وشوشاتها عالٍ جدّا..

.. الأغنية تواصل.. Oublier c’est heures..

يا له من ألم في الرأس إنّه يشـــبه الضربة الكهربائيّة يلســـع ثم يخفت وكأنّه يتراجع ليضرب مرّة أخرى على موجات.

هذا حقًّا ما كان ينقصها! ألم رأســـها وهذه الصيحات، التنمُّل يتزايد والصيحات تتزايد.. كيف لم تسمعها من قبل؟

رأياها ثملـــة أمامها، متشرِّبـــة بالمهانة والذلّ والإحبـــاط، وها قد انفضح أمرهما.. يا للعار لقد رآهما أحد..

استدارت عائدة بكلِّ بساطة فما يحصل يُضحكها، ولكنّها لم تضحك

احترامًــا لألم قلبها، قدرتها على الســير وهنت وترنّحهــا يمنعها من الإسراع..

– أين أحلام؟ تأخّرت كثيرًا عند الصيدليّة.. سألت نفسها بصمت..

فقط حاولت أن تتجاهل صراخ الأشــياء التي تستغيث من حولها، حالة الملاعق والصحون تســوء، تقفز وتئنّ فقد بلغ بها العار أقصاه، تريد عونًا ما، لا تريد أن تشهد على هذا يوما..

الله.. الله.. نفسه كان شاهدًا..

– قفي مكانك، ماذا تفعلين هنا؟

توقّفــت ولكنّهــا لم تجب ولم تلتفــت، فصوت نبيلة المــتردِّد يَقصُّ حكايات تعرفها الصغيرة جيّدا عن هيأتها:

– قلت ماذا تفعلين هنا؟

ردَّت بإهمال دون أن تستدير:

– جئت أبرِّر غيابي وأطلب عطلة فالتخرج على الأبواب.

– وو.. و.. و.. وماذا رأيت؟

– لا يهمُّني.

– أنا أكلّمكِ أخبريني.

– لماذا لا يواجهني حبيبكِ ويُجنِّبكِ عناء هذا العراء؟

– ماذا تقولين؟ أيّ حبيب تتكلَّمين عنه؟ لا أحد هنا.

– أعلم.

– ما بكِ يا فتاة هل جننت؟ قلت لك بأنّه لا وجود لأيّ حبيب هنا.

– وأنا قلت بأنّني أعلم هذا.

– كيف تكلِّمينني هكذا؟ أنا أؤكد لكِ أنِّي وحدي.

– أنتِ تؤمنين بهذا ولابّد أنّه يكفيكِ، لماذا تريدين إقناعي بذلك؟ ثم أنا أعلم أفضل منكِ بأنّه غـير موجود، إنّه كائنٌ وهميّ لا وجود له إلَّا في أعماقكِ.

نبيل لم يستفزّه كلامهما بل استمر مختبئًا داخل سردابه فحبيبة العمر تستبسل في الدفاع عنه.

– سأعود غدًا لأكلّم نبيل أخبريه بذلك إذا التقيته..

ابتعدت بجسدها وفكرها عن نبيلة.. لتبدو من بعيد ظهر مكسور وكاهل مهدود، يتقدّمهما صدر تراكمت فيه أمور جميلة ميتة، رأس مريض.. وآه من القلب الحزين.. آه..

طردها نبيل من العمل لم يكلِّمها حتَّى، ترك لها بقيَّة أجرها مع نبيلة

التي تزيَّنت في الغد وســعدت فأخيرًا أُتيح لها الانتقام، أخيرًا ستُجْهز على مشاعر هذه اللعينة دون أن يُسائلها أحد:

– هذه نقودكِ قال السيِّد أنّه لا مكان لكِ هنا معنا.

تساءلت باستسلام عظيم:

– طردني!

تضحك ملء قلبها وحبها وغيرتها:

– ارحلي من هنا يا عاهرة.

.. الأغنية دائما تواصل.. L’ombre de ton chien ..

قبل الفراق الكبير كان هذا ليدخلها عصر الجنون ولكنّها ابتســمت اليوم ولم تبكِ.. لم تستغرب لم تَلُم أحدًا، لم يضق صدرها المتَّسع كخرم إبرة ولا توسَّــلت لقمة العيش فقد تعلَّمت درسها جيّدا.. ألّا تنحني أبدًا فلن يطأ رأسها قبَّة السماء..

استدارت.. صفقت الباب بقوّة وردّت بكبرياء جبَّار:

– شكرًا.

***

« اللَّهم إنِّي أشكو إليك ضعف قوَّتي وقلَّة حيلتي وهواني على النَّاس، اللَّهم أنــت أرحمُ الرَّاحمين أنت ربُّ المســتضعفين أنت ربّي، إلى مَنْ تكلنــي يا ربّ؟ إلى قريب يتجهَّمني أم إلى عــدوٍّ ملَّكته أمري.. إنْ لم يكن بك غضبٌ عليَّ فلا أبالِي ولكنَّ عافيتك هي أوسع لِي...».. محمد ابن عبد الله صلى الله عليه وسلم.

***

العيد.. إنَّه العيد أيضًا.. جاء العيد بعد الفراق فلم تنس الصَّغيرة أن تلبس جديدًا وأن تــزور أرض ذكرياتها لتقف على قبر حبِّها وتقرأ له بعضًا من أشعارها.

الباب الحديديُّ الأخضر على حاله والحــروف الحمراء المعلَّقة على الجدار لم تبهت، مازالت عيادتــه في مكانها، ومازالت رائحة القرنفل المنبعثة مــن داخلها قويَّة كما كانت أوَّل يوم، النوافذ البيضاء المفتوحة نصفها.. تنادي.. تؤذِّن لقدومها:

– صغيرته هنا، الأصدق والأجمل هنا، الأغبى هنا..! لابّد أنّه العيد..

وحدها سمعتها وسمعت الوشوشات أيضًا تلوِّح لها من وراء بياض النافذة، الفراش كان الأكثر همسًا.

أمـــام باب العيادة بعد مرور أربع ســـنوات مزّقتهـــا الرغبة في رؤية ســـليم.. روحها المتفحِّمة منعتها من الدخول إليه وأعماقها المتشـــبّعة بقسوة الحبيب تستجدي جسدها ألّا يدخل..

ابتســـمت وفي عينيها حرقة شـــوقٍ إلى أيَّام العمر الجميل، ابتسمت فقط فليس هذا المكان المناســـب للضحـــك ولا للبكاء، كل ما أرادته هو أن تكتشف نفســـها قليلا فليس أجمل من العودة إلى مكان لم يتغيَّر لنكتشف كم تغيَّرنا نحن.

أدارت ظهرها كما تفعل كلّ ســـنة، ودَّعت الأصوات مرهقة القوى وشدَّت على عكَّاز المعاناة:

– هيا نغادر دنيا..!

– ما أعندكِ! أنت لا تتراجعين عن شيء أبدًا، لا أعلم ماذا ترجين من زيارتك السنويَّة لهذا المكان؟

تواصل ابتسامتها وتقف مكانها ثم تردُّ بدعابة يائسة:

– ألا تتعبين من تكرار ذات الكلام كلّ سنة؟

– علّ الذكرى تنفع المؤمنين!

– أعلم بأنّ الحَمل أتعبكِ وأنا آســـفة عـــلى تحميلك أعبائي حتى بعد زواجـــكِ، ولكنّك الشـــخص الوحيد الذي يفهـــم حاجتي لهذه الزيارة رغم إنكارك لهذا.

- أنا أشـــفق على كاهلك المنهك، أريد منك أن تدركي بأنّ هذا الذكر يعيش حياتك كلَّ يوم، تاركا إيّاكِ تجُرّين سنينه خلفك لبقيَّة عمرك، لقد جدَّد شـــبابه بك وأنت تدفعين غرامـــة أمراضه من أيامك، لا تدعيه ينجح أنا أرجوك ارميه خلفك واطوي ذكرياته تحت قدميك في طريقك للخروج من سردابه.

- لا تقلقـــي دنيا! هو لم يحتجزني فأنـــا أجمل من أن أموت بهجره وهو أبشـــع من أن يقتلني بغـــدره، كل ما في الأمر أنّي أريد مشـــاهدتي لأعرف حقًّا إن كنت عشت يومًا هنا..

نزعـــت نظَّاراتها الطبيَّة ومســـحت غبارًا عالقًا يمنعهـــا من الرؤية منذ زمن ثم أعادت ارتداءها، ألقـــت بعينيها إلى حيث نبيلة تجول في محلّ الكعك المجاور؛ هذه المرأة لا تشـــيخ، جسدها فقط هو ما يتقدّم بالعمر؛ أمَّا هـــي! حبها لنبيل مازال يحرّكهـــا.. يبكيها.. يضحكها.. يكبر ويكبر.. من دون أن تشيخ..

ابتســـمت وهي تراقب حـــركات نبيلة من خلال زجـــاج الواجهة الأماميّة وواصلت إحباطها.. يـــا لها من امرأة عجيبة.. قويّة.. جبَّارة هي الأخرى.. كم تمنّت الصغيرة لـــو تعرف قصّتها لتتعرّف على سرّ الحب الأبديّ ذاك..

رائحة القرنفـــل تداعب أنفها فعادت بذاكرتها إلى ســـليم، أطلقت ضحكة خافتة وتردَّدت كمن يريد إفشاء سرّ ما:

- أذكر يوم أصابه النقرس كـــم ضحكنا! أذكر جيّدا كيف وصف لي حُبَّه الشَّديد للَّحم قال:« أنا أحب اللحم كثيرًا لا أستطيع أن أتمالك نفسي أمـــام الجزار وهو يشرّح ضحيَّته يا لـــه من منظر جميل، طالما أردت مشـــاركته بلعابي الغزير كنت دومًا أستعد واثباً للانقضاض وكأنّني ذئب».. يومها كنت عمياء، يومها كان فِكري نائمًا، قلت له بعد أن لامســـت وجهه العريض الهرم:« لا تقل هذا حبيبي! أنتَ عنقاء بالتأكيد، لست ذئبًا لا تقل هذا عن نفسك مرَّة أخرى..».

أتعبها الكلام فســكتت، دنيا التي عايشت مأســـاة صديقتها تمنَّت بصوت خافت مسموع:

- كم كانـــت لتتغيَّر الظروف لو علمتِ يومها بأنّها المرَّة الوحيدة التي كان فيها صادقا هذا الكذّاب.

- هـــذا قدري دنيا! أنـــا أحوِّل كل مكان أدوســـه إلى سردابٍ للعار، أشـــوِّه كل شيء جميل حولي، أنا العار الصغيرة.. أنا عار حتى على نفسي والعار ينمو على وجهي وبداخلي وعلى كلّ جزءٍ منّي، أنا ابنة هجيرة والعار يسطو على شراييني.. إنّه قدري..

- ما حصل قد حصل ولا فائـــدة ترجى من ذكره فالتفكير في الماضي حمق وجنـــون، عليك لملمة أيَّامك، لن يفيدك الندب في شيء.. ولن أواصل مجادلتك فلا فائدة ترجى من اجترار الكلام ذاته كل ســـنة، هيَّا نعود!

– أريد منـــكِ خدمة صغيرة بعد، هلَّا أوصلتنـــي إلى المقبرة! أريد أن أزور قبر عزيزٍ آخر.. فاليوم عيد..

***

بسعادة حزينة وخوف وَجِل وشوق عظيم استقبلت العائلة نبأ مكان قبر رياض.. أخيرًا رياض.. أخيرًا..

عذابات النـــاس العظيمة صيّرت الموت خبرًا ســعيدًا وإيجاد مقابر للموتى أسعد.. لا وطن في العالم يجعل من هذا ممكنا..

لم تعد تقوى قدماها على حملها، ســارت بالسرعــة المتاحة في ذلك الصباح الباكر الماطر البارد بروده النوفمبريّ القســنطينيّ، كان المطر يهطل في وقار فلا برق فيه ولا رعد، والناس حولها على قِلَّتهم يحدِّقون بها ولكنّها تجاهلتهم فحاجتها للحديث إلى خالها اليوم تفوق حاجتها لتجنب كلام الناس.

لم تصدّق نفســها ولم تعرف بماذا عليها أن تحس هل تفرح لأنّ خالها يرقــد هنا؟ أو تنهار شــوقًا وحزنًا ومعاناةً لتكون كــما أراد لها عمي عمار.. بقعة آلام ذائبة؟

اقتربت من باب المقبرة ونظرت إليها بتمعُّن كأنّها تراها للمرة الأولى، رمقتها بنظرة اللائم كأنّها تعاتبها على وجودها هنا، واستمرت تلومها منتظرة منها جوابًا عندما لاحظت وجود ســبيل معبَّد قصير يتّجه إلى أماكن نوم المفقودين صعودًا.. كم هي مرهقة اليوم وكم هو بعيد ذاك التابوت..

ردَّدَت بحشرجة أنثى بربريَّة عظيمة عَرَفَتها قديمًا:

- السلام عليكم أهل المقبرة..

وبأمل كبير وتسليم أكبر:

- أنتم السابقون ونحن إنْ شاء الله قريبًا بكم اللاحقون.

تقدَّمت إلى الأمام خطوة تلو أخرى، كانت تحسُّ بألم كل خطوة، كأنّها تنتعل قلبها أو لعلّها فعلت، لأنّها لم تمش يوما في شيء قبل أن يمشي قلبها فيه، تنظر إلى كل شيء حولها يرتجف أو لعلّها كانت ترتجف فالواضح أنّ الدوار الذي أصابها ترك أثرا على جسدها الصغير.

تخطَّت القبور تباعا ومرَّت فوق الرقاب، الأموات يضحكون وهي تسمعهم، فمذ ماتت بها الحياة أكسبها القدر هذه الملكة.. هي تسمع حفيف الأوراق المتساقطة بكاءً.. همسات الصور وأنين الأفرشة.. صراخ الشواهد الرخاميّة لهذه القبور ووشوشات المشارط، آهات الملاعق و.. و.. وصمت هاتفها اللعين..

بين بقايا الحشائش الذهبيَّة اليابسة الصامدة بوجه أمطار الخريف ها هو رياض ينام بعمق هنا، يغطّي نفسه بحفنة من تراب.

اختصر العالم لديها لحظتها في حفنة من التراب تتكلّم و تسمع ولكنها لا تملك من أجلها شيئا، لأنّها لو كانت كذلك على الأقل

كانت لترحمها من ذُلِّ وقوفها هناك، كانت لتمسح ذرفها، على الأقل كانت حفنة التراب حتمًا ستعتذر راكعةً عن وجودها هنا..

كلّ ما استطاعت فعله أنّها رجتها علَّها تتوقّف عن البكاء، شكرتها على كلّ مشاعرها النبيلة حينها، وعدتها أن تفتح لها الباب لتأخذ جسدها الصغير الذي تركته إلى جانب صاحبها يوما فمازال صغيرا، نظرت إليها ووشوشتها قليلا.. ولكنه الموت هنا..

بقي الكلام كلاما، والتراب لم يتحرّك، وهي لم تكفّ عن البكاء وخالها لم يستيقظ.

ارتمت على التراب النديّ الرطب وضمّته إليها وصاحت بصمت عظيم.

سيطرت عليها رغبة عميقة في البكاء دون انقطاع فناحت طويلا ولم تتوقَّف، انغمست ركبتاها الضعيفتان الجاثمتان في الوحل بجانب سرير خالها المظلم.. انغمست عميقا وسقط منها عكّاز المعاناة، قبّلت كرات الطين التي صنعتها ولم تَعَف ضمّها، انتابتها رغبة غريبة في فتح قفصها الصدريّ وإدخال كوم الطين هذا إلى حيث أحشائها.

مرّت دقائق كثيرة قبل أن تعود وتتذكّر بأنّها جاءت لتحدِّث خالها.. لترمي عليه أوزارها فترتاح قليلا، تزاحمت الأخبار في فمها ولم تعلم أيّها تنفث أوّلا فقد افترقا طويلا وهي لا تعرف كيف يفكر الآن؟

.. وهل الأموات يفكرون؟؟

عمر من الزمن يفصل بينهما، طالما حضَّرت خطبًا لهذا اللقاء، نسيت خطبها جميعـــا هي بالأصل لم تتوقَّع أن يكون اللقاء هنا، الآن، هكذا، وهما على هذه الحال، فكَّرت ثوان وابتدأت:

– أنا.. أنا.. كان ينبغي.. هناك ما.. أنا.. أنا.. دائمًا.. رغما عني..

أتعبتها الغصّة الأبديّة في صدرها فســكتت، نزعت نظَّاراتها الطبيّة وأودعتهـــا الحقيبة الصغيرة المعلَّقة على كاهلهـــا لتزيده عبئًا، حرَّكت يدها الواهنـــة باتجاه وجهها وغطّت نصفـــه الأيمن التعيس وتركت نصفه الأيسر المؤلم، المطر توقّف منذ دخولها المقبرة فقد أرادت السماء لها جوًّا مكفهرا غائمًا غير مطير.. والشتاء على الأبواب..

ماذا تقول؟ ماذا عســـاها تقول؟.. اســـتمرّ الأمـــوات يضحكون، يرحّبون بميتة صغيرة تســـير على الأرض، إنّهم يتساءلون!! دموعها تزيد الطين بِلّة.. الأموات يتهامسون:

– مازالت لم تُدفن بعد، مازال هناك أمل..

ابتسمت بتحدٍّ وجلست ممدِّدة أقدامها إلى الأمام بمحاذاة قبر رياض.

– لا تبكِ صغيرتي فليس هكذا أحببتُ أنْ أراك.

– آه خالي.. آآآآآه.. كم اشـــتقت إليك يا شـــقيق أمّ.. كم من الوقت

بقيتَ وحيدًا هنا؟ كم من الوقت انتظرتني؟

- الأموات يا هجيرة لا ينتظرون..

لم تسأله عن شعوره تحت التراب، لم تسأله عن الكم الهائل من الأماني التي ذهبت مع الريح، لم تسأله عن ضيق سردابه ولا عن عتمة ظلامه فهي سكنت واحدًا وماتت في واحد ومدفونة في آخر.. بل ألقت بوجه لحده خبرًا سبَّب لها جرحًا غائرًا في روحها:

- أمي هربت يا خال وأنا ابنتها.. العار بداخلي، في كل خليَّة منِّي، رحمي سرداب للعار، وقلبي سرداب للعار، والآن رأسي وكل جملة نخاعي..

لم يندهش ولا أصابه الغضب، لعلَّ التراب يكتم أنفاسه أو لعلَّ الأموات لا يغضبون! أجاب بكل هدوء:

- لماذا؟

لم تعرف بماذا تردّ فهذه كانت أوّل مرّة يسأل فيها أحد لماذا؟ سابقا سُئِلت الصغيرة: إلى أين؟؟ مع من؟ في أيّ سرداب للعار تعمل الآن؟؟

الجميع كانوا منشغلين بمحاكمة خالتي هجيرة.. لا أحد سأل لماذا؟ ولا حتى الصغيرة..

- لابد أنّها عانت كثيرا.

- ماذا تقصد؟ أمي هربت، تركتنـــي وأحلام لقدرنا وهربت، تركتنا صغيرتين للعار ينهش وجوهنا وهربت.. العار يســـير بي في طريقي المظلم.. إنّه قدري فأنا ابنة هجيرة.

- مازلتِ متسرِّعة في كل أحكامك مندفعة في كل مشـــاعرك، يُفترض أن تكوني ميتة الآن فلماذا تغضبين؟

استحت فهو على حق كما كان دائما ولكن معاناتها تدفعها للكلام:

- حياتي انهارت خالي، أنا بقع ممزَّقة من العار.

- ارمِ بحملك الثقيل عليّ ودعيني أخفِّف عنكِ مصائبك.

- لعنـــة الحب الخاسر تذلُّنـــي، فقدت عذريتي في مـــكان ما.. قتلت ابني.. أمـــي هربت.. أبي يكرهني وله كل الحـــق في ذلك.. أحلام تعاف قذارتي فهي شريفة ولم يمسها رجل.. الوطن صيَّرناه سرداب عار كبير مَقيت.. وال..

ابتلعت كلماتها وسكتت لأنّ كلامها يســـبِّب لها كل الأذى، وخالها شهيدٌ بالتأكيد:

- .. الوطن!

– آه مـــن الوطن المتعب من الحـــرب ضد الأعداء ثـــم بين الإخوة، صدِّقني خالي لقد ارتوت هذه الأرض.

رياض نسي منذ دهور أعقاب الســـجائر المزروعة بذراعيه الهزيلتين وعينيه السوداوين.. نسي تمامًا ذُعر سِرداب الإعتراف..

هو اليوم نائم في لحده الهادئ، مســـتتر، مرتاح البال فقد أدّى واجبه ومات من أجل الوطن ولا أحد ســـيطالبه بالموت مرة أخرى، وهذا بالأصل كان يطمئنه..

هاهو رياض يتوسَّـــد شـــهادته بعيدًا عن الجلَّاد الذي يقوده مرغمًا ليقول ما تعتقده الأمُّ الافتراضيّة حقيقة..

هاهو رياض ينام مرتاحًا فقد قُتل في سبيل الوطن دون أن يعي بالضبط لماذا؟ وكيف؟ ولا من قتله؟ فالفوضى الفاخرة تشوّش الأموات..

الإحســـاس الفضيع الذي ســـبَّبته له رائحة الدماء المعتَّقة الممزوجة بالتراب التي تنشَّـــقها كثيرًا يوم انقضى عمره يجعله ســـعيدًا بوجوده تحت التراب لا فوقه.. أخيرًا..

– زملاء القضاء هنا كلُّهم يروون سنوات القهر والضياع والحرمان.. والموت..

– بعد فقدانك بقرابة الشـــهر ســـمعت الناس يقولون بـــأنّ الدينار الجزائري فقَدَ حوالي الأربعين بالمائة من قيمته بسبب تردّي الأوضاع

الأمنيّة والظرف السياسيّ اللذان تعيشهما البلاد، هناك بالتحديد بدأت حكاية فقرنا، أذكر أنّه قبلها بسنتين كان لأبي نقود كثيرة مخبّئة تحت السرداب وقد تسرّبت إليها مياه المطر، أذكر جيّدا مداعبة أمّي لشعري عندما كنّا نجفّفها ذاك الشتاء قالت لي: «انتبهي لنفسك لا تلمسي لهب النار، مادمتُ موجودة لن أترك جسدك الصغير يصاب بأيّة ندوب».

.. حدّقت إلى تساقطات الشجر الغارقة في وحل المقبرة كغرق سنينها في الأحزان وأكملت:

- ولكنّها تركتني للندوب وللذنوب..

- ماذا عن تدنّي قيمة العملة؟

- جيوب الناس أُنهكت وأبي كاد يجن فأمواله -أغلى ما لديه- انهارت قيمتها، في بداية السنة الدراسيّة التالية هربت أمي، وبعدها أنا لا أذكر شيئا عن الدنيا سوى أنّي كنت وأحلام كُرَتَي عارٍ وسط اللهيب، ولكن أبي كرهني أكثر بسبب هاتين العينين اللعينتين.. بالنهاية تعذيبه لنا لم يدم طويلا لأنّه هرب أيضا.. إلى الجبال أين «الظاهرون على الحق».

- وقبض أرواحًا من هناك؟

- ربّما!

- وليس هذا عاراً برأيك؟

بكمت فجأة فهي لم تتوقّع هكذا سـؤال بارع وليست لديها إجابة، لذلك تجاهلته وتابعت كلامها:

- عمّ الفقر اللعين أنحاء الوطن، وانتشرت موضة غدر المقتول وتهديد مشروع المقتول الموالي، كان المـوت أيامها يطلب أرواحا بالملايين وليس أكثر كرمًا من الجزائريين.. ولا أكثر غباءً.. أنا وأحلام لم ننم ولا ليلة واحدة منذ هروب أبي وأمي..

لم يكن رياض يبدي أيَّ عجب فبدا لها أنّه غير مهتم لذا سألته:

- هل تسمعني خالي؟

- أنا هنا لديّ كل الوقت لسماعك، أخشى أنّك من لا يريد الكلام.

- زهد الناس المشروع الإسـلامي وانفضّوا من حوله، وجاء الرئيس المعجزة الذي أوقف الموت.. وعاد «الإخوة» إلى منازلهم أثرياء!

- وليس هذا عاراً برأيك؟

يسقطها بيدها مرّة أخرى وتحاول أن تهرب من كلماته اللاذعة فتقول لتغيّر الموضوع:

- تأهَّلنـا إلى كأس العـالم بجنوب إفريقيا بعد أربعة وعشرين سـنة مـن الغياب، لَكَمْ تمنَّيـت لو كنت حاضرا فأنا أعلم شـدة حبك

للفريــق الوطني لكرة القدم.. وبعد غد مبــاراة الفصل بيننا وبين بوركينافاسو، الفائز سيطير إلى البرازيل..

- هنا تحت التراب لا يعود لأيّ شيء قيمة.. إلّا العظيم..

لا شك في أنَّ كلامه صحيح تماما ولكنّها أرادت الهروب من فلسفاته فمازحته بتثاقل:

- تبارزنا مع المصريين من أجل التأهل وكم كان الأمر حماسيًّا أيَّامها، بدت نذر الحرب الإعلاميَّة وكدنا -كلينا- نعلن حربا عالمية..

- وهذا ليس عارًا برأيك؟

- لماذا تسأل هذا السؤال في كل مرة؟

تجاهل سؤالها فأســئلته المؤجلة أجوبتها تمنعه من الردّ ولكنّه فاض بسؤال آخر:

- من الذي أحببته؟

ردّت بسرعة كبيرة فطالما أحبّت الكلام عن جلّادها:

- أحببت كائنا كبــيرًا من النظرة الأولى ذات يوم، تبــيّن بأنّ الكائن الكبير خنجر مسموم مغروس في قلبي يذيبه كلّما تناولت الهواء..

قاطعها هادئًا:

- ليتجنَّب تطاير شظايا جسدكِ العشقيّ من حوله أنكر بأنّه من هتك براءتكِ فأضاعكِ إلى الأبــد.. أنكر بأنّه من امتصَّ حياتكِ من بين شــفتيكِ فقتلك إلى الأبد.. دفنكِ داخــل سرداب العار وحدكِ.. فالعار حسب ذكورته أنثى!!

- !!!!!!!!!!

- إنّه حيــوان جريح حياته تهرب منه بسرعــة، روحه تفلت من بين أضلعه وهذا كان يؤذيه، أنت كنتِ خلاصه الوحيد، أراد الحصول على أيامك فوهبتِه إياها دون عناء.. أنت حقاً عارٌ على أجدادك.

- !!!!!!!!!!

- لابّد أنَّك عانيتِ كثيرا.

هزَّت برأســها الثقيل واهتزت معه عيناهــا المتحجرتان مكانهما من الدهشة أنْ: نعم.

- وأمُّكِ أيضًا.

.. لماذا يصرُّ على رمي كل ما تقوله إلى مصفاة العقل لديها؟

أتعبها النزال غير المعلن ولكنّها أتمَّت، فهي وككلّ النســاء تعشــق الحديث عن جلَّادها:

– اتَّهمني بالرذيلة، أنا التي علّقت اســمه تميمة على قلبي تحت ردائي، قال بأنّي عاهرة أنا التي حافظت على نقائي حتى يوم لوَّثني حبه، قال أنّني لم أكن عذراء من البداية أنا.. أمُّه الصغيرة.. رماني بشظاياي.. شــكَّكَ في أن يكون ابني الذي مات منه، مزّق بقيَّة أشلائي الباقية ورماها إلى الريح، أهداني فستانا ذهبيًّا جميلًا ابتاعه من أجلي عندما سافر لحضور مؤتمر ما في فرنسا، وطلب ألا أرتديـه إلا وأنا معه.. يــوم فارقني قال أنّني ارتديت الفســتان وأخلفت بوعدي، وأنا لم أفعل خالي.. لم ألبسه خالي.. وصفني بالساقطة فصفعته..

– .....!

– نعم صفعته فســبَّني، شــتم هجيرة، أهانني هو الذي يعاف بذاءتي ومازلت أتذكَّر الأمر وكأنَّه حصل منذ قليل، صدِّقني خالي! آذاني كثيرا يوم تخلّيه عني..

أشاحت بوجهها عن كتلة التراب تحدّق إلى امتداد الألواح الرخاميّة التي تفترش المقبرة.. شــبّعت رئتيها بهواء نوفمبر النديّ وحاولت أن تبتسم:

– هــل أجد مكان لحفــظ سرّ لديك؟؟ إن علمــت صديقتي دنيا بما سأخبرك إياه لن تكلّمني ما حييت.

– .....!

تضحك باكيةً..

- حســنا فهمت.. بعدما صفعته تآكلتني الذكريات والأوجاع، قبل وصول دنيا قمت من مرقدي في الحمام وزحفت إلى غرفته المنفصلة، وقفت أمام مكتبــه تخنقني الدموع، انتظرت أن يمتصّ دموعي كما اعتدت منه ولكنه لم يفعل، اســترعيت نظراته المشــمئزة.. قلت.. سامحني على مدّ يدي إلى وجهك، فقط سامحني على هذا..

- لماذا فعلت ذلك؟

- لأنّه إن لم يكن قدري فقد كان اختياري..

- وماذا قال؟

- لا شيء؛ طلب أن أرحل فأخبرته بأنّ دنيا في طريقها إليّ، وطلب أن أخــرج من الغرفة لأنتظرها في الحــمام.. كل يوم مرَّ عليّ بعدها هو يوم آخر من الفراغ الرهيب الذي يفضي إلى الضياع.

- بالله عليك قولي لي ماذا كنت تنتظرين من ذكر خان زوجته وأولاده؟ أن يحبك بإخلاصٍ مثلًا؟؟!

- .....

الموت جعله حكيمًا:

– كان عليك أن تكوني دائمًا مستعدّة للتخلّي عن أمور تحمل في نفسها رغبة التخلّي عنك، مهما كانت أهميَّتها لديك وحاجة روحك إليها، سيدميكِ انتظارك لتخلّيها عنك وسيستنزفك فعلها بك، أن تتخلّى عنك حياتك هي الفاجعة بحق.. أنت لا تحتاجين لشيء سوى نفسك لتكوني سعيدة، سعادتك مصدرها أنت وليس الآخرين.

– ربّما كان هذا ليكون حقيقة لو ما هربت أمِّي وأورثتني دمها.. لو ما عشتُ مع عمار أيامي الأغلى.. لو ما تخلّى عنّي، لو وقف إلى جانبي هو الذي لم يقف إلى جانب نفسه يوما لأنّه يتعالى عليها..

أكمل كلامها هادئًا:

– قبل رحيلها كان أبوكِ وحشًا وبعد رحيلها صار وحشًا جريحًا، ألمه جعله يضرب خبط عشواء، عاث بنفسيّتكما خرابًا، كان يتكلم عنكما بتجرُّد خال من أيّة عاطفة، لُمتِه كثيرا في بعض الأوقات وكرهتِه في أخرى، ولكن بعد قتل ابنكِ صرتِ أَمَةً لكراهيته لأنه على حق.. دائما كان على حق، فالبنات عار وابنة هجيرة لابدّ أن تكون عاراً..!

لم تؤلمها كلّ تلك الكلمات بقدر ما آلمها أنَّ خالها يكلِّمها من تحت التراب، إنّه الرجل الوحيد الذي لا تشعر حياله بالضغينة ولا بالكراهية ولا حتى بالقرف، واصلت انتحابها ولم تخجل من منظرها البشع، فرياض أيضا هو الرجل الوحيد الذي يعرف كم كانت جميلة

أيّام كانـــت صغيرة، وهو الرجل الوحيد الـــذي يعلم بأنّها ما عادت صغيرة..

تابعت عن جلَّادها:

- كان عليّ أنْ أستفيق، رجل يقتل ابنه بكلّ هدوء، ماذا توقّعتُ منه؟ رؤيتي الضبابيّة للأمور مـــدّدت زمن إقامتي في سردابه، لم أرحل، لم أبتعـــد، لم أشـــكِّك في شيء، لم أتَّهمه حتـــى.. ذات جنون طلبت منه الســـماح لأنّني حملت منه حياةً بداخلي، رغـــم أنَّه قامر بحياتي وأدخل إلى جســـدي عشرين حبَّة مـــن دواء قاتل، وحده كان يمنُّ عليَّ بالعطايا.. أنا وحدي لم يكن لأيّ شيء أهبه إياه أيَّة قيمة.. غامر بفقداني وغامرت بالبقاء إلى جانبه.. هـــو لم يكن جزءا منّي.. كان منّي.. كان يعيش فيّ.. كان أنا.. ولكن ذلك لم يكن ليكفيه رغم أنّه يكفيني..

تنهّداته تسمعها من تحت التراب، لابدّ أنّه حزين ولعله يريد البكاء!

ولكن الأموات لا يبكون..

- ولا ما فعله بك عارٌ أيضا؟

ســـارت بأحاسيســـها إلى حيث كان الزمن جميلا، يـــوم قال لها ذَكر السرداب القذر:

- تساقط شعري نتج عن هرمون «التستوستيرون» «TESTOSTERONE» والذي من خلال تأثير الأنزيم الذي يؤثر على البصلات يؤدي إلى تحجيمها، البعض منها يدخل مرحلة السكون والبعض الآخر لا يُنتج شعيرات سليمة، فالصلع لديّ ناتج عن زيادة هذا الهرمون.. وهذا ما يفسر رغبتي الكبيرة في النساء.. أقصد فيكِ...

ضحِكَت ملء أوجاعها:

- لم يخدعني سليم يومًا كان واضحًا دوماً، الخطأ كان فيّ.. بعينيّ.. لم تكن لديّ نظّارات يومها، لابّد أنّه كان قدري.. لم يكن باستطاعتي الهروب منه مهما حاولت لو.. ما كانت.. هجيرة والدتي.. لو.. ما.. أورثتني.. دمها..

- لا تقولي بأنّ هجرانه صيّرك هذا الهيكل الأنثوي؟

- في اليوم الذي أجهَضَنِي فيه، سقاني طبيب أسناني عشرين حبَّة من سيتوتاك في محاولة غير معلنة منه لقتلي، تعرَّضت لتدفُّقٍ دموِّي عنيف عانيت منه قرابة الشهرين، خسرت أيامها الكثير الكثير من الدماء، بعد توقُّف نزف صغيري أصابني ضعف عام، توقعت أنّ ما بي هو مجرَّد فقر في الدم لم أعره أيّ اهتمام، فقط اتبعت حمية غذائيّة لأستعيد عافيتي، ولكن الأمر بعدها ساء أكثر فطبيب أسناني سقاني مرّات أخرى خمسين حبَّة من مانع الحمل «ميكخوفال» «MICROVAL»على دفعتين تفصل بينهما اثنتا عشر ساعة، طلب آمرا

أن أتناول مانع الحمل كلَّما التقينا لأنّه لا يريد أن أحمل مرة أخرى.. وقد التقينا كثيرا..

قبضت على الهواء داخل رئتيها فقد يهرب منها بأيَّة لحظة وتابعت:

- بعد خمســة أيام على الأكثر من تجرّعي للخمسين على دفعتين كنت أتعرض في كل مرّة لنزيف عنيف.. وقد تناولتُ الخمسين كثيرا..

- لا حدود لغبائكِ.. إلهي..

لم تهتم فهي تعلم ذلك، بل أتمَّت:

- أيّامها صرت أضعف ممَّا أنا عليه، لكنّني لم أهتم فطبيب أسناني يحب عظامي.. فقط الحمى وألم الرأس المزمنــين كانا يحاولان أن يقولا شيئا ولكن فِكري كان أصمّ، ســكن الخدر نصف وجهي الأيسر منذ ابتدأت العمل في محــلِّ الكعك.. لم أقل لك! عملت في المحلّ الذي كنتَ تصحبُني إليه غالبًا عندما كنت تزورنا.

- محلُّ لوحة الكعكات الفرنسية؟

- .. التــي تتكلّم؛ طردني صاحب العمل نبيل، بعدما رأيت ســوأته وهو يضاجع المشرفة على العاملات.

- فتيحة.. أقصد نبيلة!!

- تعرفها؟

- إنّها مسكينة فحبها لنبيل أصابها بالموت..

- .....

- بــلى صدِّقي! إنَّها قربة مــاء فارغة كلّما تحرّك الهــواء تحرّكت لتبدو وكـأنّها تتنفس..

- .....

- كانــت صغيرة أيضا عندما عرفتُها، مليئــة بالحب والخير والحياة.. مثلكِ أيّــام كنتِ صغيرة، بعد ســنة من العمل لــدى نبيل الذي ورث محــلًا صغيرًا للكعك ويحتاج لعمال مخلصين ليحذوا طموحه بأن يصبح الأشهر والأحســن، رأيتُها تعشقه، كان أعزب وكانت عاشــقة فقيرة، الكرم الباذخ الذي يصيبنا عندما نَعشَق أعمالها ولم يكن لديها ما تهبه إيّاه.. إلّا جسدها..

- ..!!!..

- هي شقيقة صديقي.

- ..!!!.....

- ســاعدتها أمك على الاجهاض أيَّامها، فنبيل خطب أخت شريكه وتزوَّجها بعد أشهر، لأنّ نبيلة لا تناسب مستواه..

- ....!!!.....

– بلى...

– ...!!!...

– نصحتها هجيرة أن لا ترفع سقف توقعاتها به حتى لا تنصدم..

– .....!!!!!!!!!!.....

– ولكنّها لم تستطع الابتعاد لأنّ نبيل كان قد احتلّ كل خليّة فيها.. رغم استمراره في معاملتها بسوء لكنّها بقيت ولم ترحل، فكل الجروح عدا جرح الفراق تبدو تافهة.. حتى جرح الكرامة..

– يا لها من مسكينة.

– هل كنتِ ستقولين عنها ذلك لو لم تمرّي بنفس السرداب؟

استحت ولم تجب.. فرياض أبدًا على حق..

– تعلّمي ألا تحاكمي أحدًا..

– تعلّمت..

– وقَطْعُه لرزقك لأنّك كشفت خطيئته، لا يعدُّ عارا بالنسبة لك؟

لن تدعه يفلسفها أكثر وأرادت أن تعيده إلى الواقع الحقيقي:

– مذ هربت أمي وأورثتني عارها لم يعد لأيّ فعل قيمة إنسانيّة لديّ، كل الآثام تُغفر وكل الذنوب يُعفى عنها إلّا عار الأنثى، أمي

هربت ولســـت أنا من يقول ذلك بل الناس، أمي هربت ولســـت من تحاكمها بل الناس، لم يستطع أحد أن ينسى هذا ولا أن يغفر لنا ذنبهـــا، فحوكمنا أنا وأحلام مكانها، الجميل أنّ أحلام لم تكن تعي ما يحصل، استصغرونا واحتقروا أنوثتنا..

- .. حتى الإناث احتقرن أنوثتكما..!

- أقســـى النظرات التي نخرت جسدينا كانت من الإناث..! عاملننا كجراثيم، تخلصن منّي كلّما أرســـلتني جدتي لأتسوَّل الماء، نبذنني، أذللنني وشبّهنني بأمي، اقتنعت أيامها فعلًا بأنَّ العار قدري..

- .....!

- .. عبثًا صرختُ بصمت بريء: أنا لست العار الصغيرة، لا أحد.. لا أحد رحمنـــي فالعار على الـــدوام يقاس بمقـــدار الناس الذين انتـــشر لديهم خبر تخلّيك عن القيام بواجبك أمام قيمهم وأمام قيم نفسك.. هجيرة ذاع صيتها بين الحكّام وهذا ما لا يمكن إصلاحه ولا نســـيانه لأنّه يلحق الخـــزي والمذلّة، إنّه يلاحقهـــا أينما ذهبت ويلاحقنا أينما ذهبنا، بينما لا أحد سيحاسب سليم ولا نبيل ولا أبي ولا الدمقراطيّين ولا الوطنيّين فجأة ولا تجّار كرة القدم.. والأهم أنّ لا أحد سيقول بأنّ العار وقع منهم.. لأنهم ليسوا إناثا..

فاجأها بالذي نسيته:

- الله سيفعل هذا.. ربُّ السماوات والأرض.. العظيم سيحاسب الجميع.. إنّه الله.. العقل المطلق.. الروح الكليّة.. إنّه الجبار على كل متجبِّر.. سوف يصبر عليهم زمنًا ولكنّه سيضع حتمًا نهاية لمقدمات أعمالهم..

- هل الله سيشفيني؟

- أجل.

- لماذا جعلني أعاني كلّ هذا إذن؟

- لأنّه يحبك، لأنّه اختارك لترفعي إليه يديك وتترجّيه، هو يريدك أن تحدّثيه وأن تتوسّلي عفوه ومغفرته، ربُّكِ يريد منكِ أن تصلّي له، أن تسجدي له وتشكي إليه ضعفك كما فعل يومًا نبيّ العالمين عند خروجه من الطائف مهزومًا مكسورًا معتدىً عليه، يومها رفع يديه إلى ربِّ المظلومين الذي يَعِدُ ووعده الحقُّ المبين أن ينصر المظلوم ولو بعد حين، أن: « اللّهم إنّي أشكو إليك ضعف قوّتي وقلّة حيلتي وهواني على النّاس، اللّهم أنت أرحمُ الرّاحمين أنت ربُّ المستضعفين أنت ربّي، إلى مَن تكلني يا ربّ؟ إلى عبدٍ يتجهّمني أم إلى عدوٍّ ملّكته أمري.. إن لم يكن بك غضبٌ عليَّ فلا أبالي ولكنَّ عافيتكَ هي أوسع لِي...»

.. كيف يكون رياض دائما على حقّ..؟

- هل نور الله متاح لأمثالي..؟

- أمثالكِ؟ لقد عشـــتِ الذلَّ والألم وعانيت مسبقًا من أجل ما فعلتِه وهذا وحده سيمنحك طريقا إلى النور.. إلى السعادة.. إلى الألوان من جديد.. لا أعرف لماذا لا يفكر القتلة والســـارقون والغدَّارون والمنافقـــون والمتجـــبِّرون والظالمون والمحتالـــون والكاذبون مثلما تفكّرين؟

ظنَّته التاجر الصقليّ ينصح أوكتافيا في عزازيل حين قال لها:

- احزني يا ابنتي فالحزن شأن إنسانيّ، وسوف يتبدّد حزنكِ مع الأيام، مثل كل شؤون الإنسان.

ليس لأيّ سؤال آخر أن يُسأل عدا:

- ماذا عن صحّتك؟

- الدوار المدوِّخ والضربات التي تشبه لسعات الكهرباء العنيفة برأسي أقعدتني عن الشعور.. إلا بحبِّي له، الوجع النفسيّ الذي تعرّضت له فاق قدرة استيعابي وعجَّل بإصابتي بانتكاستي المرضيَّة الأولى في اليوم الذي تركني فيه، فالضغوطات النفســيَّة المستمرة كما علمت لاحقًا تؤثِّر سلبًا على الجهاز المناعيّ بمقدار الضعف، بداية لم أعلم ما يحدث، فقط كنت أضعف أكثر وكنتُ كلَّما تناولت الخمسين حبَّة

على دفعتين نزفتُ ونزفت أيَّامي، جسدي لم يعد قادرًا على التحمُّل أكثر، ظنّت طبيبتي..

توقَّفت لحظة وابتسمت باستهزاء ثم قالت:

- صرتُ أحب الطبيبات أكثر..

.. ظنَّت بأنّه نقصٌ في معدن الكالسيوم بجسمي، وظننت أنا بأنّ النزف طويلا سبّب لي فقر دم، صور الرنين المغناطيسيّ وحدها قالت بأنّ ما بي هو مرضٌ عصبيٌّ مزمن.. فاستجابة لمُستضدَّات غير معروفة بدأت كريَّات دمٍ بيضاء لمفاويَّة بمهاجمة صفائح الميلانين التي تغطي أعصابي مسبِّبة زوالها وهذا أخذ يعيق حركة الإشارات العصبية لديّ ليُسبّب لي الخدر وانعدام الشعور والوهن المزعج في يدي، خاصة في أطرافي من الجهة اليسرى، التهاب العصب البصريّ لعينيّ سبّب رؤيتي الضبابيّة غير الواضحة وألزمني بنظَّارات طبيّة للنظَّر.. أخيرًا، إحساسي القديم بما يشبه الضربة الكهربائيَّة لدى تحريك رأسي لازمني لسنين.. الرعاش و فقداني للتنسيق بين أعضاء جسمي ومشاكل التوازن تذلُّني بهذا العكاز المقيت، ألم العصب الثلاثيّ يزيد من ألم نصف وجهي الأيسر.. والإرهاق العام يضعفني، حيث يكون غير متوقَّع وغير مناسب للنشاط الذي أقوم به..

- . . . . . إلهي . . . .

سكتت أخيرًا ولم تذكر التبوّل اللإرادي، هي التي ظنَّت طوال حياتها بأنّ تبولها اللإرادي سببه خوفها المُفخَّم من الظلام والوحدة والذبح، ثم أتمَّت:

- يقال أنّ الضرر الذي يحدث للميلانين سببه ردّة فعل غير طبيعيّة لمناعة الجسم التي من المفترض أنّها تحمي جسمي من الكائنات الغريبة والضارة والطفيليّة!!!

- !!!!

- أنا أجتر مرضًا مزمنًا يصيب الصغيرات الأكثر.. ذاتيّ المناعة فجسمي يهجم على خلاياي..

توقَّفت كثيرًا وازدحمت الدموع في عينيها لأنّ هذا القول صعب جدّا..

- !!!!

- .. وأنسجتي.. إنّه مرضٌ تحريضيّ يسبِّب التهابًا في الجهاز العصبيّ المركزيّ - وهو الدماغ والحبل الشوكيّ - هذا الالتهاب هو الذي يُسبّب الهجمة، وهي عبارة عن حالة وقتيَّة تظهر فيها الأعراض المَرضيَّة التي تغطِّيني؛ تستمر عند المرضى عدَّة أسابيع وأحيانا أشهر وقد استمرت معي لسنين، ثم قد تختفي تمامًا أو جزئيًّا ولكنّها بقيت معي كلّها مجتمعة.. هذه حالة يهاجم فيها الجهاز المناعيّ الميلانين

الــذي يلتف حول الخلايا العصبيّة وهــذا ما يجعل من كلّ مريض حالة خاصَّة دون أن يكون هناك نمط معيّن للمرض.

- أنتِ كجدّتك.. أنتِ محقّة تماما كلّ ذلك مقدّر حتمًا..

- أتعني.. أنّ المرض الذي أقعدها عن الحياة.. هو.. هو وراثيّ إذا!

- هل أثبتوا ذلك طبيًّا؟

- لا ولكن هناك الكثير من النظريات..

- الآن لكِ أن تبكي فلن أمنعك..

- بل الآن أضحك! فأنا على حقٍّ للمرة الأولى في حياتي.. ألم أقل لك بأنّي عار حتى على نفسي ألم أقل بأنّ العار قدري.. جســمي يهجم عليّ ألا يكفيني هذا عارا؟ العار ميراثي عبر الســنين وأنا على حقٍّ أخيرا..

لذّات الروضة التي يسكنها لم تمنعه من رجائها:

- لا تيأسي من رَوح الله، آمني به كثــيرا وبالأحلام أيضا، قديمًا أنتِ جعلتِني أؤمن جدّا بالأحلام حتى لا يفقد العالم بريقه في عينيّ، لقد آمنت بها كثيرا من أجلك..

- ولكن البريق الذي ســكن عينيّ قد ضــاع.. « فالتَّصَلُّبُ اللُّوَيْحِيُّ العَصَبِيُّ المُتَعَدِّدُ» « **La Sclérose En Plaques**» يفرض عليّ قانونه.

– هل هناك اليوم علاج لهذا ال.. تصلُّب؟

بكل بساطة:

– لا..

.. الـــدواء الذي عليّ أن أتناوله هو «الكورتيزول» « Cortisol» وذلك أثنـــاء الهجمة وهو يهاجم الجســـم أيضا من أجل مقاومـــة ردّ الفعل المناعيّ الذاتيّ والســـيطرة على الأعراض، أمّا في حالة سكون المرض التي لم أعشـــها مطلقًا فالدواء المفترض هـــو «ربيف» « Rebif» وهناك أدوية أخرى وكلّهـــا متقاربة في المفعول وتدعـــى «معدِّلات المناعة» لأنها تعمل على تغيير طبيعة التركيب المناعيّ.. صدِّقني خالي لا فائدة ترجى ممَّا بقي منِّي.. كل هذا قدري..

أَسمَعَها نبرته الغاضبة للمرّة الأولى في حياتها:

– ماذا تقصدين بقدرك؟ هل تنتظرين أن يهبك الآخرون حياة تعيشينها لأنّ كذّابـــا يعيش حياتك بدلًا عنك، أنتِ عارٌ على أجدادك.. أنتِ عارٌ على أجدادك..

– هذا ما كنـــت أحاول قوله منذ البداية.. أنا صغـــيرة العار، أنا ابنته المدلّلـــة، أنا التي غادرتني هجيرة وتركتنـــي للعار فمازالت هامتي صغيرة، أنـــا التـــي سرتُ في طريقي المظلم الذي كلّـــما أظلم عليَّ مشـــيتُ فيه.. أنا الصغيرة التي وقفـــتُ في بيت الريف مبتلة العمر

ظننتُ البلل خوفًا فكان قدرًا، التبوُّل اللاإرادي يُذِلُّني كلَّما فقدت سيطرة على نفسي ذات نوبة، عذريَّتي الضائعة في مكان ما تستفزُّ وجودي، وابني المذبوح قربانًا لحب الكذّاب يختصر كل آلامي..

– أنا لا أتحدث عن فقدانك عذريَّتك ولا إجهاضك يا حمقاء لا أقصد أيًّا من هذا.. رغم كل شيء تمسّكي بالحياة تمسّكي بما هو لك.. أيامك ساعاتك وحتى أجزاء الثانية من حياتك، لا تُضحّي من أجل أحد فلا أحد سيضحّي من أجلك، أنتِ لم تعيشي حقًّا بعد، لم تختبري شيئا.. عيشي حياتكِ ولو على منصَّة للعرض وسط العاصفة، تمسّكي بها إنّها رُوح الله التي وضعها بكِ.

– أنا لا أريد هذه الحياة، فليعشها سليم مكاني، أرادها هي له، ولن أطلب منه إعادتها أبدًا ما حييت.

كما دوَّت يومًا صرخة « زبانا « في الكون ذات رسالة.. دوَّت صرخة رياض في المقابر:

– « ليس من عاداتنا أنْ نطلب من عاداتنا أنْ ننتزع ».. اقتلعي فرحتك من قلبه، انتزعي ابتسامتك من بين أنيابه، تناولي دواءك لا تتناولي ترياق ذكورته بدلا عنه، قومي وانفضي عنك غبار السراديب.. ما الفرق بينك وبين الموتى؟ أنت ميتة تدّعي الحياة.. لا تبكيه بعد اليوم إذًا.. لأنّ الأموات لا يبكون..

– كان هذا ليحدث لو ما أورثتني هجيرة دمها وصيّرني رحيلها صغيرة سـوداء أعيش أيّاما مؤجلة، لو ما بقيتُ باسقة في بيت الريف يوم فقدناك ميتـا، يومها كنتُ وحيدة جدّا.. يومهـا.. مازلت وحيدة جـدّا.. يومها كنتُ صغيرة، سُرق عمري منّـي يومها.. ما عاد لي شرف ولا عمر ولا حنين.. علّق الشرف مشـنقة سنيني فأعدمني عليها..

– الـشرف كذبة كبرى إيّاكِ أن تصدّقيهـا..! أين كان الشرف عندما انتهك ذلك الذكر براءتك؟ أين كان الشرف يوم استباح دموعك، دماءك، ابنـك، مرضك..؟ يوم اغتصـب ضحكتك، ما بقي من فرحتك، أحاسيسك، أين كان الشرف عندما أدخلك عيادة هي في الحقيقة سرداب مفتوح؟ أيـن كان الشرف عندما تركك تواجهين نهاية عالمك وحدك؟ لا وجود لشيء اسـمه الشرف أنثى، أين كان الشرف عندما تركتُ ياسمينة لفاجعتها ونمت هنا..؟

لا شرف إلّا رضـا الله، الشرف ليس كيف ينظر الناس لك بل كيف ينظر الله لك..

من قال بأنّ العار أنثى؟ الظلـم هو العار، الجهل هو العار، الكذب هو العار، النفاق هو العار، الجبن هو العار، القتل هو العار، الغدر هو العار، الفُجر هو العار، الفساد هو العار، التكبّر هو العار، التجبّر هو العار، من قال بأنّ العار مؤنّث..؟

العار أنْ لا تعرف كيف تحب ولا تعرف كيف تعتني بمن تحب.

العار ألّا تحب.. العار ألا تحب بجنون.. أنْ تدّخر مشـــاعرك وتبخل بها، ألّا تحب بكل قطرات دمك، بكلِّ قلوبك بكل أعينك وبكل شيء حيّ فيك.

العار أنْ تتشتَّت هائمًا دون حب.

العار أنْ تعيش ويحيا الذي ظلمته من بعدك.. أنْ تمرض ويُشفى من بعدك.. أنْ تحزن ولا تجد من يطفئ فرحتـــه ليحزن معك من بعده.. أنْ تفـــرح ولا تجد من يُخفي دموعه عنك من بعده.. ألاّ تجد من يحبك بصدق من بعده.. العار أنْ تندم في الأخير.. العار ألّا يفيدك الندم..

العار أنْ تهيم مسعورًا دون سماح.

العار أنْ تقبـــل أمورًا لم يكن في نيَّتك إعتيادهـــا لأنّ الزمن يفرضها عليك.

العار أنْ تصبر عـــلى حبيب يهينك صبرك عليـــه.. أنْ تكون وحيدًا حتى وأنت بين يديه.. أنْ تذوب في مســـاماته، وتنمحيَ تفاصيلك في وجوده حدّ اســـتصغار نفسك.. أنْ تضحّي من أجله وهو لا يستحقُّ التضحيـــة.. أنْ يَضِيع منـــك يوما ما فتُضيِّع بعده نفســـك.. أن يُنكر مخلوق الكذب وجودك لأنّه عاجز عن التصديق بأنّ هكذا حب كان فعلًا حقيقة.

العار أنْ تدع ذلك الذي ظلمك يترك في نفســك أثرًا أشبه بالضياع ويُرغمك على اجترار آلامك باســتمرار وكرهه أكثر.. العار أنْ تدعه يقتلك مرارًا وتكرارًا..

العار أنْ يؤلمك فرح الآخرين أكثر ممَّا يخفِّف عنك.

العار أنْ تكون شبح إنسان يشبه ذوي الحياة، لأنّك في الحقيقة ميت لا تشعر بل أنت ميت لأنّك لا تشعر..

العار ليس أنثى مذنبة.

العار ليس أمًّا عازبة ولا أمًّا قُتل ابنها إجهاضًا.

العار ليس امرأة بالغة الذلِّ.

العار ليس آلهة هاربة.. العار ليس هجيرة..

العار ليس صغيرة مريضة، ارتسم بها وشم رجل عشقته حدَّ الجنون فليس ذنبها أنَّ جسدها وفيّ جدًّا يذكر كلّ يوم بأنّ الحبيب مرّ من هنا.

العار ألّا تقف إلى جانب نفسك لأنّك تتعالى عليها.

العار أنْ تريد الهروب.. العار ألّا تجد إلى أين تهرب.

العار أنْ تعيش وتموت مع الفئران.

العار أنّنا جعلنا العالم يفقد بريقه في عينَي نفسه.

العار أنْ تكتشــف متأخِّرا أنَّك كنت تبحث عن براءة هي بالأصل ضاعت منك.

العــار أنْ تَضِيع منــك ضحكتك في زحمــة الدخــان والغبار و.. الشرف..!!

العار هو الدمار.. هو أقصى درجات النذالة والخنوع..

العار أن تنتهك قيمك الإجتماعيّة والثقافيّة والذاتيّة والدينيّة.. حتى لو لم يرك الآخرون.. لأنّ الله قد رآك.

العار إعاقة مزمنة بالفكر لا تطالها الأعين ولا المحاكمات.

العــار أنّ الثورة أكلت أجســادنا وأرواحنا ضحكاتنــا وأفراحنا.. نهشت كل ما فينا.. العار أنّ الشعوب لا تتعلم من تجارب بعضها..

العار أن تتفرّج على ثورات أبناء قومك في الإنسانيّة وتعتقد بأنّ كل شيء على ما يرام.. فأنت لم تَثُر بعد.

العــار أنْ تُفــرض الديمقراطيّــة على الشــعب.. العــار ألّا تطبَّق الديمقراطيَّة بالشعب.

العار أنْ نلاطف الابن المدلَّل لأمِّنا الحنون وتستهلكنا رغبتنا في قتل بعضنا.

العار أنْ يُقتَل الناس كل يوم دون ذنب.

العار أنْ تسرق.. تكذب.. تحتال.. تسطو.. تروّع الآمنين.. تحارب من أجل لا شيء.. الغباء عار..

العار ألّا تستطيع الدخول إلى وطنك لأنّك حفيد جدّك الذي هرب منه ذات يوم حاملا معه شرفه المنهوب.

العار أنْ تصنع السلاح.. أنْ تبيع السلاح.. أنْ تَقتُل بالسلاح.. وأنْ تموت أعزل بلا سلاح.

العار هو جلادنا البشع غير الملثم يجعلنا نفهم بأنّنا منتهون.. يومًا..

العار يهوي بأسمى المقامات وأعلى الشهادات وبأرفع الناس علمًا إلى هاوية من الذلّ والخزي..

.. وسِردابُ العار.. هو كلُّ ذلك..

رحِمُكِ ليس سرداب العار، عيادة النفاق هي السرداب الضيق الذي يحشر جسدك ويكتم أنفاسك.. محلّ الكعك هو السرداب الذي امتصّ دفء روحك، برده تسرّب إلى عنفوانك العظيم.. بيت عمار هو السرداب الإفتراضيّ الوحيد الذي لم يتسنّ لك الشرف فيه.. سرداب العار الوحيد الذي لك أن تؤمني به وتخشيه هو جهنّم.. لأنّ شرف الدنيا الذي نرتديه أمام الخلق يُشترى بالنقود صدّقيني، عيبك الوحيد هو فقرك..

الشرف لعبة اخترعها الأغنياء ليتسلّى بها البسطاء كما اخترع النخبويّون المبادئ ليتسلّى بها غيرهم.. الشرف ليس بنتًا، الشرف دين وأرض وانتماء وصدق وحريّة ومبادئ وقوة تفكير.. وكلمة حق..

- لا تكن أفلاطونيًّا خالي، فالعار ليس أن ترتكب ذنبا بل أن يعرف الناس به، العار ليس أنْ تبيع شرفك بل أنْ تكون أنثى، العار يا خالي عندنا مقدس.

- وأنتِ قلتِها «عندنا»، صغيرتي آمني بأنّ العار يخضع لتجاذبات المساحات المكانيّة فاليابانيون مثلا يقدّسون العمل، مثلما يقدس الأمريكيّون الحرب، والإسرائيليّون السلاح، والصينيّون الإدخار، والهنديّون العبادة، ويفضل البرازيليّون تقديس كرة القدم.. بينما نقدّس «عندنا» عار الأنثى، تركنا للأمم مهمة الصعود إلى القمر، وبحث إمكانيّة الإقامة في المرّيخ، واختراع القنابل بألوانها.. السيطرة، الاكتشاف، الابتكار، والازدهار بالعلوم، في الوقت الذي بعثر فيه الزمن أولوياتنا ولم يتح لنا فرصة إعادة ترتيبها.. فصار عار الأنثى هو بداية البدايات ومنتهى النهايات.. كم كنّا سنستفيد لو استغللنا طاقة عقولنا المهدورة في قضايا النساء؟

- ولكنهم يقبلون كل أنواع العار إلا غلطة الأنثى.. حتى أقرب الناس إليك.

– أليس للأمر علاقة بالقدرة الجسدية برأيك؟ سواء.. كلهم سواء.. مهما فعلت من أجلهم ومهما ضحّيت ولكنهم سيتعاملون معك كما لو أنكِ الدنس الوحيد في حياتهم الطاهرة..

استفزّه تأنيثها للشرف فاستطرد مغاضبًا:

– إذا كان الشرف أنثى! إذا بقتلها لم يعد هناك شرف؟ سحقًا لنا ولشرفنا اللعين..

هناك منطق في ما يقول، فالرجل الذي يَقتُل باسم الشرف هو رجل يعيش حياتين؛ حياة شرفيَّة أمام أعين الناس وأخرى بشريَّة مليئة بالعار لذلك فهو يعيش أسير الظنون..

.. لقد ذكّرها بنصيحة أخرى من ميت آخر:

– يوم توفّيت جدَّتي همستني أنْ: لا تحزني على أمر صغير أبدًا فكل الأمور صغيرة..

.. ولكنّني يا خال! اعتدت المصائب و أَلِفتُها فلا تهزُّني إلَّا الأمور الصغيرة..

– نسبيَّة الخسارات معادلة محسومة، فما يبدو لكِ اليوم أمراً جللا ستضحك عليكِ منه ملَكَتُكِ لاحقًا.. هذا ما أرادت جدَّتك أنْ تقوله لك ولكن حياتها داهمها الرحيل، ارتاحي فأنت لم تَظلمي

من ظلمكِ، وسوف تتغلَّبين على ظلمه لك وتنسينه دون شك، بينما يعيش هو وإن لم يعترف وفي نفسه خوفان، أقساهما خوف من المستقبل لأنّه يعلم بأنّ جرحه لك دين سيسأله الله عنه.. وكما أدانك سَيُدان..

.. على سليم أنْ يعرف بأنّ العار دينٌ لابدّ أن يرده..

– كيف أنساه وكل شيء حولي يذكّرني به؟.. كل شيء فيّ.. كنتُ أرضي كل شيءٍ فيّ بوجودي معه ولكنَّ رحيله عنّي وعجزي عن إرضائي عرَّضني للعقاب منّي..

– هذا غير صحيح إنّه فقط يعيش في خيالك المتقن.. لا ألم أبديّ.. لا نزف أبديّ.. سُنَّة مؤكّدة.. لن أنكر بأنّك ستتعبين في محوه منك ولكنّك ستمحينه؛ فقط أصرّي على ذلك وسوف يتغيّر كلّ شيء.

– خساراتي أكبر من أن يستوعبها قلبي الضعيف.. فقط الجبّارون يستطيعون تحمُّل هذا العقاب وينجون بأنفسهم من فيح الذاكرة كلّما فتحت فوهتها..

– أخبريني من صنّفك مع الضعفاء؟ أنتِ من يريد ذلك.. أنتِ قرَّرت أنْ تنهزمي؛ الضعفاء وحدهم دون سواهم يسمعون أغاني الحب الحزينة، واخترعوا الأشعار والقصص حتى يقيّدوا أنفسهم بحب أناس أقوياء، الضعفاء يريدون أن يؤرِّخوا لكل دمعة غباء عبثيّة

ذرفوها، يريدون أن يُجيبوا حواسَّهم كلَّ يوم عندما تطالبهم بحبيب العمر أنْ هاهو الحبيب مسكوب في أوراق، يتمنّون لو يستعيضون عن الحبيب بحروف.

- يا لها من فكرة رائعة، ولو استطعت ذلك لكنتُ أسديت إلى نفسي يدًا لن أنساها أبدًا.

- لا أمل فيكِ.. أنتِ الأفلاطونيَّة..! كفاكِ غباءً.. كوني قويَّة، فالأقوياء وحدهم دون سواهم يسحقون الضعفاء تحت أقدامهم ليمرُّوا في دهاليز الحياة، يسحقونهم رغم حبهم لهم، يسحقونهم ليكونوا في القمة.. كوني في القمة فهذا اختيار.. لماذا تصرين على الجثوم في السرداب؟

- أين سيختفي كلُّ هذا الوسخ ما دمت أنا هي نفسي؟ هذا الخراب لا يراه إلَّا من مرَّ في سراديب العار، السرداب هو موطني أين أدفن رأسي وأرقد بسلام..

- لن أنكر، أنتِ ضحيّة منكّل بها، ولكن حتى لو كنت ضعيفة أتقني ما تفعلينه لا تكوني ضعيفة من النوع الرديء.. واجهي خساراتكِ واقبَليها.. أتقني ما تفعلين.. كوني ضحيَّة جبارة..

.. سكتا معًا فلابدَّ للمحارب من استراحة، ذهبت الصغيرة بفِكرها إلى خالتي هجيرة التي لم تكرهها يوما رغم علمها بأنّ أمومة هذه المرأة

لهـــا دمّرتها، لم تحقد عليها فالصغيرات لا يحقدن.. لم تخجل بها يوما بل اشتاقت إليها كل يوم.. كل ساعة.. كلَّما دمرها رجل..

استيقضت من تفكيرها وخالها يقول:

– اضحكي صغيرتي.. فقط اضحكي كيفما كان ذلك وســوف تشفين بسرعة.

– أتمنى ذلك بصدق.

– تأخّر الوقت حبيبتي عليك أنْ تعودي الآن، وغدا تعالي لا تنسيني هنا، غدا أخبريني عن أحوال الوطن الإسلاميّ الكبير.. تعالي غدا لا تنسيني هنا..

إنّها تســمع صوت نواحه المتــأوّه للمرة الأولى منذ عرفته عاشــقا لليــاســمين، كم أسعدها ذلك هي التي تعلم جيّدا بأن رجلا لا يعرف كيف يبكي خساراته هو ليس رجلا بالأصل:

– سأعود غدًا خالي.. غدًا أروي لك عن «صدام» والعراق، وتونس، وليبيا، ومصر، واليمن، ولبنان وبورما وســوريا.. آه سوريا.. غدًا أعود خالي فغدا يوم آخر..

***

في الغد لم تأت لأنَّ الإرهاق العامُّ يُقعِدها عن الحركة..

.. بعد الغد هاهي المقبرة أمامها، تكبَّدت التَّعب الشَّديد الذي يسكنها صعودًا إلى ريـــاض.. توقَّفت قليلًا لتأخذ نفسًـــا وترتاح.. على حافة هـــذا العكاز جرّبت اليوم لملمة أحلامها.. تحـــاول ألاّ تفقدها، اتَّكأت على عكَّازها وســـاعدت نفسها بأن أسندت ظهرها إلى شجرة الأوراق المتساقطة بكاءً وأنصتت جيدًّا، الأوراق اليوم لا تصدر أيَّ صوتٍ، فقط هي تموت وتهوي لتســـقطَ وتغرقَ في الوحل، أخرجت منديلًا صغيرًا ومسحت به نظَّاراتها برجفانٍ غير إراديٍّ، استغرقت وقتًا طويلًا فعدم تناســـق حركاتها يُبطِئُ فعاليَّتها، أعادت المنديل برجفانٍ أكثر فلابدَّ أنَّها مرهقةٌ كثيرًا، رفعت رأســـها المتوجِّه إلى الأرض وســـارت بنظرها في المكان، هاهو رياض لم يبق على وصولها إليه إلَّا القليل.

ألقت السَّلام ولم يَرُدَّ أحدٌ.. الأمر غريبٌ فالأموات اليوم لايردُّون، لا يضحكون، لا يتهامسون، لا يبكون، الأموات اليوم أمواتٌ.. كل ما فَكَّرَت به:

– هل مات خالي أيضًا؟

مشـــيتها العرجاء تزداد ســـوءًا، ألقت بـــكلِّ أوجاعها على عكازها وتقدَّمت خطوةً..

التقط قلبها صوتًا ما، أرهفت السَّـــمع جيــدًّا فهذا الصَّمت يطحن عظامها، صمت رهيب يذكِّرها بيوم الفراق، فالصَّمت الرَّهيب ليس أبدًا الهدوء الذي يســبق العاصفة بل الذي يليهــا.. لابُدَّ أنَّ إعصارًا ضرب هنا قبل قليل، أتكون ياسمينة جاءت تزور رياض؟؟

حالُ الصَّغيرة اليوم أفضل، يبدو أنَّ همَّها المسكوب على وجه رياض قد جعلها تتحسّن، فقط لو لم تهرب أمُّها، لو ما التصق العار بجبهتها إلى الأبد، كانت لتخرج من الــسِّرداب النَّديِّ البارد الذي جرَّها إليه سليم، كانت لتتوقَّف عن زيارة قبر حُبِّها كلَّ عام، كانت لتشفى حتمًا وأشلاؤها ســتعود إلى مكانها تلقائيًا، كانت لتتناول دواءها وتبحث عن عملٍ ومأوى، كانت لتعود إنســانًا كامل الإنسانيّة، كانت لتكبر وتحيا سنينها بكلِّ ما آتتها الحياة مِنْ حياة..

.. ولكنَّ هجيرة هَرَبَتْ والعار يَشِمُ صغيرتها بوشمه إلى الأبد..

ترنَّحت بخطوةٍ أخرى وأرهفت الســمع جيِّدًا فهاهو الصَّوت من جديد:

- كم اشتقت إليكِ يا ابنة العمِّ.

.. مازالَتْ تُرهف السَّمع جيِّدًا..

- آهٍ كم اشتقتكِ يا ابنة العمِّ.

- آهٍ أنـــا من هذا المرض اللَّعين.. أنا أتخيَّـــل أمورًا لا وجود لها، كيف أسمع صوت أبي هنا؟ مالذي سيأتي بهِ إلى المقبرة؟

الصَّوتُ مازال ينادي:

- آهٍ كم افتقـــدت عينيكِ يا هجيرة، فمنذ طـــردت ابنتنا الكبرى من البيت لم أر عينيكِ اللَّتين تعذِّباننـــي وتبعثان فيَّ روحي من جديدٍ، عيناكِ قصاصي وزورق نجاتي معًا.. اشتقت إليهما كثيرًا..

- لقد ساءت حالتي حقًّا يجب أن أعيد التَّفكير في مسألة الدواء هذه.

تقدَّمت خطوةً أخرى بعناءٍ كبيرٍ، اســـتجارت بحافة شاهد رخاميٍّ لميتٍ ما وتقدَّمت، الصَّوت ردَّد مرَّةً أخرى:

- آهٍ كم اشتقتكِ يا ابنة العمِّ.

- آهٍ كم اشـــتقت أنا لصوت أبي فهو يذكِّرني بالماضي حين كان جميلًا، الماضي السَّحيق..

استمرَّ الصَّوت هذه المرَّة يبكي:

- آهٍ كم اشتقت إليكِ يا ابنة العمِّ.

- أين مصدر الصَّوت؟ مِنْ أين يأتي؟ هل هو حقيقة أم وهم؟

خلف الشَّـــجرة العارية على حافَّة الجرف بجانب السِّـــياج المهترئ

شبح إنسانٍ يجثو ساجدًا عند كومة ترابٍ أخرى تبدو عليها آثار الزَّمن الوحشيِّ الذي ســوَّاها بالأرض، كومة من دون شاهدٍ رخاميٍّ، يجب أن يكون قبرًا منسيًّا لكائنٍ منسيٍّ.

استمرَّ الشَّبح يبكي:

– آهٍ كم اشتقت إليكِ يا ابنة العمِّ.

أخرجــت المنديل مرَّةً أخرى، ومســحت النَّظَّارات مــرَّةً أخرى، وارتدتها مرَّةً أخرى، وتقدمت خطوةً أخرى، الشَّبح يرتِّل:

– آهٍ كم اشتقت إليكِ يا ابنة العمِّ.

– هذا أبي يا أيَّتها السَّماء.. إنَّه أبي يا أيَّتها العناية الإلهيَّة.. أبي عمار صار شيخا..

اقتربت من كومة الكائن المنسيِّ أكثر، عمِّي عمَّار يعرف كيف يبكي.. إنَّه إنســانٌ.. ليس جحرًا بل إنســان.. كائنٌ حيٌّ من لحمٍ ودمٍ وعظامٍ وقلبٍ وعقلٍ ودموع.. دموعه تنزل مدرارًا، تنزل وتنزل ولا تتوقَّف.. لا يبدو أنَّها ســتتوقَّف.. عمِّي عمَّار إنسانٌ يبكي.. شيخ يبكي.. شعر أبيض يبكي.. تجاعيد غائرة تبكي.. هيكل هرم مُتقلِّص يبكي..

– عيناك مَقتَلي، طردتُها لأنَّ لديها عينيكِ، كلَّما نظرتُ إليها تذكَّرتكِ، كلَّما ضربتُها نَظَرَتْني بتلــك النَّظرة منكِ، تركتِها مكانكِ وعاقبتِني

بها، أخبرتُها دائمًا بأنَّها بشعةٌ لأنَّ جمال روحها كان يُغيظُني، أقنعتُها بأنَّها تشبه القرد لأنَّ روعتها تُذِلُّني.

.. أكمل نواحه وأكملت حيرتها وأسئلتها:

- مع من يتكلم أبي؟

- يــوم عدتُ من الجبــل وجدتُكِ جميلةً كأجمل مــا تكون الحبيبات، يومها كان اليوم الأخير، يومها لم أكن سأعود إلى هناك أبدًا، يومها رأيتهم يقتلون النَّاس.. لحقــوا بي، هدَّدوني بك وبالبنات، كرهت نفسي وكرهتكُّن، لِمَ عليَّ أَنْ أنكسر لأنَّكنَّ عائلتي؟ يومها لم أستطع مســامحتكِ لأنَّكِ أنثى، يومها لم أتحمَّل رؤيتــكِ تواصلين الحياة.. تواصلين كونكِ الأقوى والأجمــل والأصدق والأروع والأصبر، تواصلين إشــعاري بدنوِّ شــأني مقارنةً بمقامكِ الرَّفيع، لم أتحمَّل رؤيتك تنتصرين عليَّ عشقًا..

أكملت حيرتها وأكمل نواحـه:

- بعدما هدَّدوني بكِ وحاولتِ طردهم من بيتكِ بشجاعةٍ لم أملكها، أثرتِ غضبهم وحكموا عليكِ بــأَنْ حصل عليكِ زعيمُهم الحقير رغمًا عنــكِ أمام عينــيَّ الدَّامعتين ويــديَّ المكبَّلتين، لم أســتطع مســامحتكِ لأنَّكِ أنثى، لم أتحمَّل رؤيتــك تقتحمين الحياة رغم كلِّ شيء.. بابتسامة عينيكِ، بضحكتكِ، بجسدكِ الجميل المغتصَب..

تنفَّس قليلًا قبل أن يتابع:

- أنا أكرهها لأنَّها كانت تنظر إليَّ كلَّ يومٍ بنفس العينين اللَّتين نظرتِ بهـــا إليَّ وأنا أقبض على رقبتِك لأغســـل بقيَّة عـــارك.. أنا أكرهها لأنَّها أنثى بربريَّة مفعمة الكبرياء، لم أتحمّل رؤيتها تواصل الحياة.. تواصل كونها الأقوى، والأجمل، والأصدق، والأروع، والأصبر.. تواصل كونها أنتِ.. تواصل إشـــعاري بدنوِّ شأني مقارنةً بمقامها الرَّفيـــع، لم أتحمَّل رؤيتها تنتصر عليَّ بحنانها المنهمر عليَّ من عينيكِ المبتسمتين المزروعتين برأسها..

بصـــوتٍ منكسرٍ، وخَجَلٍ يكســـوه ويغمره ويفيـــض من جوانحه، ولكنَّه قالها:

- فضَّلـــتُ أَنْ ينمو العار على وجهي، وعلى يديَّ، فضَّلتُ أن أُدخِلكِ وصغيرتـــكِ سرداب العار بدل أَنْ أُعدَم في «دولةٍ كافرةٍ» بســـبب غسلي لبقيَّة عاركِ فذلك أســـهل، بالأصل اغتصابُهُ لكِ صيَّر بيتنا سردابًـــا للعار، أنتما كنتما تعيشـــان فيه والعار يكســـوكما، لاحَقَني عاركِ أينما ذهبت فأتعبني.. أتعبني كثيرًا.. جعلتُها تعتقد بأنَّها عارٌ، رميتُها بذنبي فقـــد كانت خلاصي الوحيد، أخبرتها بأنَّها ســـتبقى صغيرةً أبدًا فالعار يجعـــل منَّا صغارًا أمام الشَّرف، تبوُّلها اللإرادي المزمن ساعدني على إقناعها، يوم علمتُ بأنَّ التَّبوُّل اللَّاإراديَّ يُسبِّبه مرضٌ عصبِّيٌّ مزمنٌ بكيتُ.. بكيتُ لأنَّني وضعتُ ابنتي على طريقٍ

مظلمٍ كلَّما أظلم عليها مَشَتْ فيه..

يا له من بربريٍّ يبكي حبًّا ضائعًا وأبوّةً تائهةً:

- جعلتُها تظنُّ بأنَّكِ لا تريدينها ولهذا هربتِ وتركتِها، أردتها أن تكرهكِ، أردتُ لها أن تكون بقعة آلامٍ ذائبةٍ، ولم أنجح، حاولت محو ذكراكِ من كلِّ القلوب ولم أنجحً، كيف أنتِ أقوى منِّي؟ كيف؟ كيف هي أقوى منِّي؟ كيف؟

- أهذه أمِّي ترقد هنا يا خال..! أهذا والدي يستدرك : تَرَكْتِها صغيرةً جدًّا.. بريئةً جدًّا.. كم كانت تحبُّني رغم ضربي لها دائمًا، أبعدتُها عنِّي، عاقبتُها على فعلتي، ابتسامتُها لي كانت توجعني.. أنتِ أنتِ غادرتِ وقتلتِني بها، وجودها معي كان قصاصي اليوميَّ، لم أتحمَّل هربتُ إلى الجبل، حاربتُ دون هدفٍ ولا معنى، كنت أهرب من عينيكِ النَّاميتين على وجهها، لم أتحمَّل العيش معها وجودها كان يؤذيني جدًّا.. في روحي وكرامتي وقلبي وكبريائي.. كانت تؤذي براءتي أمام الناس وأمام القانون..

- أهذه أمِّي ترقد هنا..؟

- لم أخَفْ مِنَ الموت، دائمًا استقبلته بشجاعتكِ، تمنَّيتُ لو متُّ ولا أحد حقَّق أمنيتي، لا أحد أراحني من ابتسامتها، أردت أن أتلاشى وأن أصبح نسيًا منسيًّا، تمنَّيتُ لو متُّ قبل هذا، أشلاء العسكر والخاوة

المتناثرة في الجبال الشـامخات لم تحرِّك قهري، فقـط عيناكِ الغارقتان بدموع الوداع كانتا تلاحقانني..

اعتدل في جلسته وأسند رأسه بيدين متحجِّرتين كشجرةٍ عتيقةٍ تصبو للبقاء:

- أعلم بأنَّني خذلتكِ ولم أعتن بها ولكن صدِّقيني إنَّ وجودها آذاني.. وجودهـا كان يؤذيني.. وجودها مـازال يؤذيني.. قلبها الأبيض هشَّم رجولتي.. كيف هي أنتِ؟ كيف؟

لم أقـو على الاسـتمرار، عندما عدتُ من الجبـل توقَّعتُ أن تكون تغـيَّرت.. كَبُرَتْ.. فَقَـدَت براءتها، لكنَّني وجدتهـا جميلةً كأجمل ما تكـون الصَّغيرات، اعتنت بأحـلام وبجدَّتها وأكمَلَت دراسـتها.. نجَحَتْ فيما أردتُها أن تفشـل فيه، كرهتُها أردتُ أَنْ أنتقم منها، كيف لم يحطّمهـا غيابنا معًا؟ كيف واجهت الفقر؟ كيف لم تجُع.. لم تبرد.. لم تبك.. لم تتألَّم.. لم تيأس.. لم تخف.. لم تمت.. كيف لم تنطفئ ابتسـامتها على الأقل؟ كيف أمكنها ذلك؟ إنَّها مجرَّد صغيرة.. كيف نجحت فيما فشلت أنا فيه؟

دموعه الغزيـرة تحكي عمرًا من اللَّاحياة، وآهاتـه تروي دهرًا من اللَّاحبِّ:

- اتَّهمتُها بالعار، أخبرتها بأنَّ دمك يجري في عروقها.. يغزوها.. وقد آمنت بي.. طردتهـــا من البيت يوم علمت بأنَّهـــا كانت على علاقة مع ذكر ما، لم تخبرني عن اســـمه رغـــم أنِّي هدَّدتها بالموت.. الشَّيء الوحيد الذي لم أعلم أنَّها كانـــت تتمنَّاه حقًّا، رغم أنِّي قبضت على رقبتها لأجهز على عارها أيضًا.. لم تخبرني باسمه.. لم تَخَفْنِي.. لم تخن مشـــاعرها تجاهه.. دافعت عن ذكراه بشـــجاعتكِ.. استحقَّت أَنْ تكون ابنتكِ بجدارةٍ..

.. مرَّت ثلاث ســـنواتٍ على طردي لها.. سمعت أحلام تُحَدِّث دنيا وعلمت بأنَّ مرضًا عصبيًّا مزمنًا يلهو بها بقي من أيامها.. تســـكن دار العجزة..

- هذه أمِّي ترقد هنا يا خال..

لم تبكِ الصَّغـــيرة ألمها اليوم فهو أكبر ألمًا مـــن الذرف، لم تبك فدائما هناك دموع لا تقوى العين على ذرفها، بكت مشاعرها كثيرًا في الماضي، بكـــت حبَّها طويلًا تلك الأيام، بكت ولم تكفها الدُّموع، صرخت ولم يُفدها الصُّراخ..

.. وهل تغسل الدُّموع قذارات الغدر والخداع والعار والرَّذيلة؟

لم تبك اليـــوم لأنَّ البربر لا يبكون.. لم تتبوَّل لأنَّ البربر لا يفعلون.. لم ترتجف لأنَّ البربر لا يرتجفون.. ولم يســـقط منها أيُّ شيءٍ لأنَّ البربر

لا يسقطون..

- ضَغَطْــتُ على مجرى الهواء مــن رقبتها طويلًا، نَظَــرت إليَّ بعينكِ المحمرَّتين الدَّامعتين الحزينتين مستسلمةً ولم تقاومني.. كلماتها ترنُّ في ذاكرتي، لم أســتطع نسيانها فهي محفورةٌ على جدار جروحي تزيد مِنَ اللَّهيب، قالت لي:

« لقد رحل يــا أبي! كما رَحَلَتْ، تركني كما تركتــكَ، تألَّمْتُ لأجله، كذبت، ســهرت، ضحَّيت، أغدقت، هربــت إلى المجهول والمرض، قسوتُ على رحمي بالعشرين دفعةً واحدةً، شربت الخمسين على دفعتين ونزفتُ.. تحمَّلت مســؤوليَّة شرف عشقٍ مجنونٍ مدمِّرٍ.. وبالنهاية هو ارتدى رحيله ومضى.. غادر إلى حيث هجيرة ولن يعود.. أنا أعذرك أبي فرحيلهم عنَّا مؤذ ومهين.. لا تصدِّق بأنِّي أكرهك بل أنا أحسدكَ لأنَّكَ اســتطعت أن تدافع عن نفســك ودمَّرتَنِي.. لا تحزن أبي فأنت محظوظٌ لأنَّك وجدتني لتنتقم منها.. كم أغبطك..!»

.. علمْتُ يومها بــأنَّ ذاك الكذَّابَ حطَّمها، تَرَكَهــا ضائعةً مدمرةً تائهــةً، لا تجد مذاقــا في شيءٍ.. طالما أردت رؤيتها محطَّمةً لأســتعيد كرامتي منها، ولكنَّني حين شاهدت كتلة البقايا البشريَّة التِّي صيَّرها إليها ذاك الآخر أشفقت عليها وزَهِدْتُ في قتلها فهي ميتةٌ بالأصل..

ذهب بذاكرته إلى يوم ماتت ابنته:

– أَخْبَرَتْني أنَّها تَعْذِرُ قتلي لها، قالت:

« يوم رحيله يا أبي أخذ كلَّ أحلامنـــا التِّي بنيناها معًا، لا أعرف إلى أين؟ أعرف فقط بأنَّه لن يُعيدَها إليَّ، ويتوجَّب عليَّ أن أســـامحه باسم فن من فنون الحبِّ.. اســـمه العطاء.. عليَّ أنْ أسامحه لأنَّني أنثى.. أنا وحدي جســـدي يحمل دليلًا على عاري.. عليَّ أنْ أســـامحه لأنَّ العار أنثى..!»

.. أحبَّتْهُ رائعًا حين كان اليوم الأوَّل، أحبَّتْهُ عاشـــقًا حين كان اليوم الجميل، أحبَّتْهُ كذَّابًا حين كان اليوم الغريب، وستُحِبُّهُ دائما حتَّى بعد الفاجعـــة.. إنَّها وفيةٌ كأوفى ما تكون الصَّغـــيرات.. إنها أنتِ.. رأيتُها تندثر أمامي، كان العار قد تفشَّى فيها، ولم أستطع من أجلها شيئًا..

كم هو خاسرٌ هذا الأب الخاسر:

– لم أتلذَّذ بخســـاراتها بل اســـتمرَّيتُ أحاول امتصاص حياةٍ من بين عينيها.. وجدتهـــا فارغةً إلَّا من حُبِّهـــا له، كما قَتَلْتُـــكِ قَتَلَها، كما دمَّرتُكِ دمَّرها، وكما أحببتِني أحبَّتهُ.. يومها علمت بأنَّ الحبَّ موتٌ وحياة.. عارٌ وشرف..

وكأنَّه يشكر غياب زوجته الموجودة تحت التراب غصبًا:

– نظرَتُـــكِ أبعدتني عنها، عيناكِ قالتا: أتركها هذه ابنتي بقعٌ ممزقةٌ من الوجع، أَفْلِتْ ابنتي، لقد آذاها الزَّمن ومسح بها أرض الحياة الدُّنيا،

أذلَّها وأدمى روحها وليس لجرحها أن يندمل.. لا تزدها وجعًا.. لا تقتل ابنتي الكبرى...

في الجهة المقابلة للمقابر دربٌ يسلك بين صفَّين من الأشجار التِّي انحنت أغصانها على جانبي الطريق، خلفه يبدو السَّهل فسيحًا ينبسط على مدِّ نظرها الضَّعيف.. ركضت إلى هناك بالسُّرعة المتاحة.. تعرج وترتعش وتضحك وتبكي وتصرخ وتدَّعي اللَّهو.. الحريَّة.. صرخت بكلّ ما فيها.. صرخت ودوَّت صرختها في المكان..

.. الله.. الله نفسه كان شاهدًا.. الله نفسه كان يعلم ما يحدث..

– هذه أمِّي ترقد هنا يا خال!.. أنا لست العار الصَّغيرة... أنا ما عدت صغيرةً.. هل تسمعني يا خال..! أبشري أيَّتها القتيلة! فالعار حكرٌ على عمَّار.. انتهى العار يا أمّ..! لن يعنينا العار بعد اليوم.. العار حكر على سليم يا أمّ!.. سوف يغرق يومًا وسوف أضحك أنا والنَّار التِّي بداخلي سوف تهمد وسوف ينتقم لي القدر..

العار.. يا أيَّتُها القتيلة..! ألمٌ مركَّبٌ امتزجت فيه أسوء المشاعر على الإطلاق وعجزت الدُّموع عن الوصول إليه لغسله..

الفضيلة يا أمّ أن السَّماء لم تقطر دمًا لأنَّ عمَّار قتلكِ مرَّةً ولكنَّ العار أنَّ السَّماء ستقطر دمًا حتمًا إنْ تركتُه يفعل ذلك بعينيكِ مرَّةً أخرى..

.. أنا أقسم بدمك غير المســكوب يا أيَّتها الشَّريفة..! لقد عاد العار مذكرًا..

توقَّــف يا أيُّها الكون! عن دورانك الرُّوتينيِّ الرَّتيب فأمِّي ترقد هنا، أمطري يا أيَّتها السَّماء! لأُبعث من رمادي أنا العنقاء.. اشهدي يا أرض الوطــن! فأمِّي الطَّاهرة الشَّريفة.. أكتبي هيا أكتبي يا أيَّتها الملائكة..! إلهي..! كم هذا صحيح.. أنا لست العار الصَّغيرة..

السَّــابعة والرُّبع مساءًا بتوقيت التَّاســع عشر نوفمبر 2013، يعلن الحكم السِّــنغالي «بَــادَارَا دِيَاتَا» عن انطلاق مبــاراة الفصل المؤهِّلة لمونديال البرازيل بــين المنتخب الجزائريِّ والمنتخــب البوركينابيِّ.. وأبناء نوفمبر لا يلحقهم العار في نوفمبر..

«.. سيروا بإذن الله تعالى مِنْ فوزٍ إلى نصر..» **عبد العزيز بوتفليقة**